ضباب القلوب

رواية من الخيال العلمي

ضباب القلوب

رواية من الخيال العلمي

د. طالب عمران

اسم الكتاب: **ضباب القلوب.**

اسم المؤلف: **د. طالب عمران.**

الترقيم الدولي: **ISBN**: 978-9933-567-17-0

الناشـــر: **دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.**

سنة الطباعة: **2017.**



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سورية - دمشق - جرمانا - ص.ب: 249 جرمانا

هاتف: 00963115618956

: 00963115637060

فاكس: 00963115632860

aklpublishing@gmail.com

الفصل الأول
ذكريات الزمن المنقضي

ها هي القاهرة المزدحمة تنفرش أمامك ببيئتها المتخمة بالغبار والدخان، وبأناسها الذين يلهثون وراء كسب العيش بمختلف السبل..

تجلس في زاوية في كافتيريا الإذاعة والتلفزيون، وأمامك تمتد العمارات والإنشاءات القديمة والشوارع المفتوحة الغاصّة بالسيارات التي تنفث الأبخرة والدخان.. يقترب منك النادل يسألك وأنت تحدّق في النيل الممتد والخضرة التي تحف به شارداً:

– تريد أن تبقى هنا؟

– لماذا تسألني؟ أنا مرتاح هنا.

– الآنسة تنتظرك هناك..

– أية آنسة؟ أنا لوحدي هنا. أنتظر فقط أحد أصدقائي الذي لديه مقابلة مع مدير التلفزيون.

– انظر إليها. هي تشير إليك.

نظرتَ في الاتجاه الذي أشار إليه النادل، فرأيتَ فتاة في عقدها الثالث تنظر إليك وهي تبتسم، وتلوح لك محيّية.. فكرتَ في نفسك: ((لابد وأنها اعتقدتني إنساناً آخر..)).

– اسمي ريما، أنت الأستاذ فارس؟ لدي موعد معك.. اجلس من فضلك.. سأوضح لك الأمر..

((قلبي يخفق، أشعر أنني أعرفها منذ زمن.. يبدو وجهها مألوفاً..)).

أطلّ عليكما النادل:

– أتريد شيئاً يا سيدي؟

– ماذا تشربين؟ عصير جوافة؟

– لابأس.. عصير جوافة..

– آسف، كيف عرفت اسمي؟

تبدو قريبة إلى القلب كثيراً.. تأملتَها قلقاً.. سألتك الصبيّة:

– دقق جيداً.. ألا يذكرك وجهي بشخص تعرفه؟

– ربما يبدو وجهك مألوفاً لي، ولكني لا أتذكر.. آسف..

– أتعرف سيدة اسمها (دينا عبد الحميد)؟ أيذكرك هذا الاسم بشيء؟

أربكَتك المفاجأة: – دينا عبد الحميد؟ ماذا تقولين؟ يا إلهي..

– أنا ابنتها..

– ابنتها؟ يا إله السماوات.. أنت تعيشين في القاهرة؟

– نعم أعيش معها.. أتذكر هذه الصورة؟ هي صورة تجمعكما..

خفق قلبك بشدّة:

– دينا حية وتعيش هنا؟

– وما زالت تزور البيت القديم الذي كان يجمعكما وتبكي..

– وكيف عرفت أنني هنا؟

– هي من قرأت الخبر في الصحف، وأرسلتني إليك.. أمي في حالة صعبة وترغب برؤيتك..

– كأنني في حلم، دينا حية، ولها ابنة أيضاً.. لا أكاد أصدق..

– هي الحقيقة يا أستاذ فارس.. يمكنك معرفة تفاصيلها عندما

ترى أمي..

* * *

كان وضعاً غير مفهوم، رأى فارس نفسه في دائرة الحيرة والقلق والتوجس، وقد عاد بذاكرته إلى ماض مازال حياً داخله..

كانت دينا كل شيء في حياته.. أحبها حباً ملك عليه فؤاده، وبعد اختفائها المرعب ظلت وجعاً في ذاكرته، وقد شعر أنه ظلمها وأضاعها بإهماله ولهاثه خلف الشهرة الكاذبة..

تعرف عليها في دمشق، كانت تسكن الحي القديم في مركز المدينة، تحيط ببيتها عرائش الياسمين، حتى أنه أطلق عليها في ذلك الحين اسم الياسمينة..

كانت في سنتها الأخيرة في الجامعة في أوائل الثمانينات من القرن الماضي وكانت تعيش مع والدتها ووالدها الذي كان يعمل في دمشق..

تعرف والدها الذي ينتمي إلى عائلة عريقة من الاسكندرية، إلى والدتها الصبية الجميلة ابنة أحد أشهر تجار دمشق،

وطلب يدها بعد أشهر، وتزوجا وأقاما في دمشق حتى انتهى عمل والدها الدبلوماسي فعاد مع أسرته الصغيرة إلى القاهرة.. وحين توفي الوالد بحادث سيارة وكانت دينا في عامها الثاني، عادت أمها إلى دمشق وتابعت حياتها مع ابنتها في كنف الجدّ الذي تعلق بدينا حد الهوس..

وشبّت الصغيرة في البيت الدمشقي العتيق، وقد تعلقت بمكتبة جدها حتى أصبحت وهي في الخامسة عشرة تقرض الشعر وتكتب الخواطر التي ساعدها جدّها في نشرها في الصحف..

– يا صغيرتي دينا، ستكونين كاتبة كبيرة إن شاء الله، وتخرجين من دائرة التجارة التي اشتهرت بها عائلتنا..

– الفضل يعود إليك يا جدّي، أنت من أورثتني هذه النعمة الجميلة، القراءة.

– أنت حفيدتي التي أحبّها من بين أحفاد كثيرين، لا ينظرون إلي سوى نظرتهم إلى كومة مال تدرّ عليهم المتعة..

كانت أمها تشعر بوجع في صدرها في ذلك الحين.. وكانت تتناول كثيراً من الأدوية.. وكان جدّها يردّد دائماً:

– أعـان الله أمـك، أثـر عليهـا المرحـوم والـدك كثيـراً بوفاتـه المبكـرة.. ورفضـت الـزواج رغم ازدحـام الـراغبين، فهـي جميلـة وجذابة ومازالت فتيّة..

رنّ الهاتف يوماً.. كان رجلاً يتكلّم باللهجة المصريّة:

– أنت دينا؟ أنا المحامي صالح الخرّوبي، أريد أن أتكلم مع والدتك..

رفعت الأمّ السمّاعة:

– خير إن شاء الله يا أستاذ صالح؟

– سيدتي، يجب عليك الحضور إلى هنا مع ابنتك.. حكمت المحكمة لصالحك في ميراث زوجك..

– بعد هذه السنوات؟

– نعم.. ويجب أن تحضري خلال أيام..

تـردّدت الأم فـي السـفر قليلاً بسـبب صـحتها المنهـارة، ولكـنّ والـدها أقنعهـا بضـرورة السـفر.. فهـي تسـافر مـن أجـل حقهـا وحق ابنتها.. ومن أجل تحقيق رغبة زوجها المتوفي..

– انتبهـي لنفسـك يادينـا، سأرسـل لـك الكتـب التـي طلبتهـا يـا

ابنتي..

– سأشتاق لك كثيراً يا جدّي..

أكّدت أمّها:

– سيزورنا جدّك قريباً يا ابنتي، هكذا وعدني..

تنهّد الجدّ:

– نعم.. مع بداية الربيع إن شاء الله..

كانت ذكريات دينا حول بدء سكنها مع أمها في القاهرة جزءاً من ذاكرة فارس فقد حكتها له بالتفصيل..

– عندما وصلنا القاهرة، كان في استقبالنا محامي أسرة والدي مع عمتي إيناس التي كانت متعلقة كثيراً بوالدي.. كانت تردّد أمامي دائماً:

– أنت من رائحة المرحوم، لن أتركك أبداً يا حبيبتي..

– أمي مريضة يا عمتي، وحالتها الصحية تتدهور باستمرار..

– سنجلب أهم الأطباء المختصين لعلاجها.. ترك لك والدك الكثير من المال، وحاول أعمامك رغم حالتهم المادية الممتازة أن يتسلطوا على ميراث والدك ويحرموك منه بدعوى أن والدك

لم ينجب سوى ابنة أي أنثى.. ولاحق لها سوى بجزء بسيط من الميراث..

– لابأس يا عمتي، أنت أمّي الثانية..

– لم يرزقني الله بالأولاد، ومات زوجي مبكراً.. ستكونين كل شيء في حياتي..

* * *

انتبه لنفسه، لقد شرد كثيراً، وريما تقود السيارة إلى جانبه:

– شردت طويلاً؟

– نعم يا آنسة.. طفت موجة الذكريات في داخلي.. هل البيت بعيد؟

– هناك ازدحام كما ترى، القاهرة مدينة مزدحمة.. نحن نسكن على طريق المطار.. المكان هادئ وليس هناك تلوّث كما في باقي الأحياء المزدحمة..

– كانت أمك تسكن في الدقّي، قريبة من منزل عمّتها..

– اشترت أمي البيت الذي نقصده منذ نحو عشر سنوات بعد وفاة عمتي، أتعرف عمتي؟

- بالتأكيد.. كانت سيدة طيبة وحنونة، وتحبّ والدتك كثيراً..

عاد إلى شروده وريما تقود السيارة الصغيرة فوق الجسور المتداخلة محترمة صمته.. قابل دينا لأول مرة في لقاء حول القصة.. كانت صبية تعشقها العين، وغرق في حبها من أول لقاء..

شعر أنها مختلفة عن كل من قابلهن برقتها وصفاء شخصيتها وبقدرتها على الحوار.. أصبحا صديقين، وتبادلا الرسائل حين عاد إلى سورية..

ولم يستطع أن يبتعد عنها لزمن طويل فقد كانت كل أحلامه وعالمه.. وقد وضّب نفسه لزيارة القاهرة مرة في الشهر على الأقل.. وبعد عام شعر أنه لا يستطيع الحياة بدونها، فاتصل بها من الفندق الذي نزل به فور وصوله القاهرة:

- اسمعي يادينا، رشحوني لعمل في القاهرة نتيجة إلحاحي، وبدءاً من الشهر الثالث من العام القادم، سأكون هنا، ولن أتركك بعدها..

- حالة أمي تتدهور كثيراً، ولولاي لماتت منذ زمن، أنا نسمة

الحياة التي تتنسمها..

– سأكون إلى جانبك نعتني بها، أعرف كم تحمل لي من حب..

– سنلتقي في المساء ونتحادث بوجود أمي وعمتي..

* * *

كان لقاءاً شديد الأهميّة بالنسبة لحياته.. قالت أمها بحنان:

– أرجوك يا خالة أن لا تخذليني، أطلب منك يد دينا..

– تريد الزواج من دينا؟ وكيف يا بني؟ أنت تعيش في الشام..

– سأنتقل إلى هنا بعد شهرين أو ثلاثة.. رتّبوا لي عملاً هنا..

– فاجأتني..

دخلت دينا وهي ترتدي لباساً أنيقاً كعادتها:

– تفضل يا فارس القهوة الدمشقية..

– سلمت يداك..

سألته الأمّ:

– أخذت رأيها؟

قال عندها سريعاً:

– دينا، طلبت يدك من والدتك.. أكون سعيداً لو تقبلين بي زوجاً لك..

قالت دينا بارتباك:

– فاجأتني بطلبك، اعتقدت أن الموضوع مؤجل لبعض الوقت..

– لماذا؟ ستصبح وظيفتي هنا..

همست:

– أمي مريضة يا فارس، لنؤجل الحديث بعض الوقت..

– حسناً يادينا كما تشائين..

سألتهما الأم:

– ماذا قررتما؟

قال فارس:

– سننتظر لبعض الوقت.. حتى تتحسن صحتك يا خالتي..

* * *

كانت الذكريات تطفح من ذاكرته، وهو إلى جانب ريما الصامتة التي تتابع قيادة سيارتها في شوارع مزدحمة متجهة

صوب البيت الذي كان متشوقاً للوصول إليه..

رمق الصبية الصغيرة التي تتسرب بسيارتها ببراعة بين السيارات المزدحمة، وسألها:

– مازلنا بعيدين؟

– لا.. خلال دقائق نصل شارعنا الصغير الذي يقع فيه البيت..

– تدرسين في الجامعة؟

– نعم.. كلية الهندسة المعلوماتية.. سنة ثالثة..

– تبدين أصغر من ذلك..

– هكذا يقول لي الجميع.. هه.. بدأنا نقترب..

ازدادت خفقات قلبه وريما تدخل سيارتها إلى الكراج الصغير، وهو يهبط من السيارة لاحقاً بها وقد دخلت بوابة من الحديد المشبّك، ثمّ أخرجت مفتاح البيت وفتحته وهي تردّد بحبور:

– أمي.. أمي.. الأستاذ فارس..

رآها تخرج متمايلة فشعر بقلبه ينسحب منه.. اندفع إليها والدموع تنحدر من عينيه..

- دينا، لا أصدق نفسي، أنت هنا؟

- قررت الاتصال بك فأنا متعبة يا فارس..

- سلامتك، يا إلهي..

انتبه إليها.. كانت تبدو ضعيفة نحيلة ودموعها تبلل خديها.. حملها وأدخلها البيت وهو يشعر بحنان لا يوصف.. بللت دموعها كتفيه، كانت تبكي بصمت.

- أرجوك يادينا يكفي بكاء، أنت تقطعين قلبي..

- لابأس.. ليس الأمر بيدي، دموعي تنهمر رغماً عني.. أول مرة أبكي أمام ريما.. ضعني هنا على الكنبة..

- لا أصدق نفسي بعد كل هذه السنوات.. بحثت عنك في كل مكان في المشافي، نشرت نداءً لك في الصحف.. كنت ألهث منتقلاً إلى كل بقعة علّي أعثر على خيط يوصلني إليك، كيف اختفيت كل هذه السنوات؟ كيف؟ ومتى تزوجت؟ لك ابنة كما أرى..

- لا تتعجل، المهم أنني أيضاً كنت أبحث عنك.. الذي جرى لي لا يصدق يا فارس..

- ماذا جرى لك؟

- أتذكر ذلك الحديث الذي دار بيننا حين طلبت منك تأجيل زواجنا لعدة أشهر؟

- نعم.. أذكر ذلك جيداً، وكنت متألماً من ذلك..

- حسناً.. ريما أعدي لنا الشاي يا ابنتي..

- سأفعل يا أمي.

همس: - ريما تشبهك كثيراً.. بالتأكيد هي لا تشبه أباها..

- يمكن، مع أنني كنت أحبه كثيراً..

شعر بالغيرة ولم يدر كيف تلفّظ بكلمات أتت متتابعة حزينة..

- إنني أحسده..

تابعت روايتها وهي تتنهّد بحزن:

- في ذلك الوقت اشتد المرض على أمي، ورغم ذلك كانت تصر أن أتزوجك، وتحلم أن ترى أحد أولادنا قبل موتها..

* * *

يا ابنتي أنا متعبة.. أريد أن أفرح بك، ذلك الشاب ممتاز ويحبك، وأنا مطمئنة إليه، يجب أن تتزوجيه..

- لا أستطيع أن أفرح وأنت تتألمين، أنت عالمي يا أمي..

- ستتزوجين وتقيمين معنا أنت وفارس، لن نسمح له بالابتعاد عنا.. هيا أبلغيه بموافقتي..

خرجت إليك وأبلغتك بقرار أمّي:

- لابأس يا فارس سنتزوج، وستقيم معنا..

- ولكن هذا لا يليق بي.. يجب أن نقيم في بيت آخر معاً، وأمّك معنا..

- للظروف أحكام يا عزيزي.. أمي مريضة، وعمتي اشترطت أن نسكن في بيت والدي، أي مع أمي..

- لا بأس.. إن شاء الله تتحسن صحّة والدتك، سأجهز البيت إذن، وأرجو أن لا يكون موعد زواجنا بعيداً..

- نستطيع أن نتفق على التاريخ أنا وأنت..

- ليكن الخميس القادم..

- أي بعد خمسة أيام؟ ولكن..

- لابأس أستطيع تدبير نفسي..

* * *

وأكملت دينا وهي تتنهّد:

– وتذكر كيف جرى الزواج بسرعة وانتقلت للعيش معنا..

– كانت أجمل أيام حياتي، عشرون يوماً فقط، ثم اختفيت فجأة أنت ووالدتك وعمتك..

– لم نختف.. كان حدثاً مرعباً الذي جرى لنا..

– ماذا؟ لم أفهم ما تقصدين..

أتت ريما تحمل صينيّة الشاي، ولحظت دموع أمها:

– أحضرت الشاي.. هل أنت بخير يا أمي؟

– نعم يا حبيبتي أنا بخير، اتركينا قليلاً يا حبيبتي، سأناديك إن احتجت شيئاً..

– حاضر يا أمي..

خرجت ريما بهدوء، وأغلقت الباب خلفها:

– أتذكر ذلك التاريخ جيداً..

– نعم.. في السابع عشر من أيلول 1985..

– كان عيد ميلادك، وقد أخفيت عنك الحفلة الصغيرة التي هيأتها لمفاجأتك بالاتفاق مع عمتي.. في ذلك اليوم انهارت

صحة أمي فجأة، واستدعيت الطبيب على عجل، فأشار لي أن أنقلها إلى المستشفى التخصصي بسرعة كبيرة.. وأتت سيارة الإسعاف.. وانطلقت بنا وتركت لك رسالة على المكتب..

– رأيتها وقرأتها، ولحقت بكم إلى المستشفى التخصصي، ولم أجد أحداً..

– حدث لنا حادث مريع..

– انقلبت بكم السيارة؟ ماذا حدث؟

– حدث لا يصدق.. في أحد الوقفات على إشارات المرور.. فوجئنا بالباب ينفتح وبدخول شابين بثياب طويلة ولحيتين كثيفتين.. كنت مع أمي في الخلف، وقربنا عامل الإسعاف، وكانت عمتي في الأمام قرب السائق..

– لا يتحرك أحد، سأفرغ رصاص هذا المسدس بمن يتحرك..

– أمي مريضة، وحالتها خطيرة، أرجوك، يجب أن تصل للمستشفى..

– إن كانت ستموت، فلتمت.. حياتها ليست أغلى من

حياتنا..

تحرّك السائق محتجّاً.. فانتهره أحدهما:

- اسمع أنت.. الزم مقعدك في قيادة السيّارة، وكن هادئاً..

- أرجوك لا داعي لذلك، العجوز مريضة جداً وتحتاج للإسعاف السريع.. نحن نعمل في الإسعاف، ما ذنبنا وأنت تهددنا بالقتل بالرصاص..

بكت دينا:

- أرجوك، إن كنت تؤمن بالله لا تعطل عملية إسعاف أمي..

- اخرسي ولا تسمعينا نعيقك.. سأقتلك قلت لك..

تأوهت أمّي:

- لا بأس يا ابنتي.. أكاد أختنق.. أعطني شربة ماء..

جهّزت الزجاجة الصغيرة لتشرب منها أمّي، فرآها أحدهما:

- لديكم ماء.. هاتي..

نتر زجاجة الماء منّي بوحشيّة، فتوسّلت:

- اتركها.. تحتاج لجرعة ماء..

حاولت أخذ الزجاجة فتلقّيت لطمة شديدة على وجهي من يده

وهو يردّد:

– سأقتلك إن تجاوزت حدودك..

ثمّ ضربني بيده بقوة فغبت عن الوعي.. وأمي تبكي حتى أغمي عليها.. وحين صحوت، كانت عمتي إلى جانبي وقد أوقفوا السيارة وأرسلوها إلى الخلف، كانت تبكي، مسحت وجهي بدموعها.. كانت أمي ممدّدة أمامي وقد غطيّ وجهها بالغطاء، فعرفت أنها ماتت وأخذت أصرخ بجنون..

* * *

سألها فارس: – كانوا خاطفين هاربين من العدالة؟

– نعم، ستفهم كلّ شيء فيما بعد.. آه يا إلهي.. انفجرت غضباً، حاولت أن أقاومهم، ولكنهم ضربوني وعمتي وهم يقطعون الطريق بسيارة الإسعاف وقد استولوا عليها وألقوا بكادرها خارجاً.. وسرحت في شوارع جانبية بصوتها الصاخب، والناس لا يعرفون شيئاً عما يجري داخلها.. ويبدو أن السلطات كشفت حركة السيارة.. فانتشرت الدوريات بسرعة.. وعلى الحاجز، وكنت مفجوعة غير مبالية بشيء،

انتبه رجال الشرطة على بكائي وحالتي، فحاولوا إيقاف السيّارة التي انطلقت بسرعة خارقة، ولطمني أحد الأنذال بكعب المسدس، فأغمي علي..

- يا إلهي، كل تلك العذابات..

* * *

- وصحوت مرمية وقربي عمتي المتأوّهة في غرفة معتمة.. وحين انتبهت لنفسي وما جرى لي أخذت أبكي متمنية الموت، وقد تذكرت ما حدث لأمي، صرخت بعمتي:

- عمتي أرجوك.. أين وضعوا جثة أمي؟

قالت متأوهة باكية: - لا أدري يا ابنتي.. استيقظت من غيبوبتي هنا مثلك..

أخذت أصرخ: - أيها الأنذال..

فتح الباب بصرير مزعج، ودخلت امرأة بدينة بوجهها العابس:

- لماذا تصرخين؟ اسكتي أيتها الفاجرة..

- أنا فاجرة أيتها المرأة الحقيرة.. أنتم لستم بشراً..

- اخرسي.. سأضربك..

رجتها عمتي: – لا تضربيها أرجوك.. هي صغيرة مفجوعة بأمها..

– سأحرمكما من الطعام حتى يأتي الأخوة ويقرروا بشأنكما..

خرجت وأغلقت الباب بشدّة وهي تتلفّظ بكلمات سوقيّة..

* * *

الفصل الثاني

الخروج من دائرة الحصار

تنهّدت دينا وهي تهزّ رأسها بحزن:

– كانت أياماً مرعبة لا تصدق..

– ألهذه الدرجة؟

– آه يا فارس.. أروي لك ما حدث ومازالت تفاصيله ماثلة في ذهني..

– يا إلهي كل هذا جرى لك، وأنا ألوب باحثاً عنك، وماذا حدث بعد ذلك؟

– آه.. قصة طويلة مؤسية..

– كيف كان ذلك يا دينا؟ أكانوا مجرمين هاربين من العدالة؟

– نعم.. ولم أتعرّف إلى توجهاتهم إلا في تلك الغرفة المزرية التي بدت بيتاً مهجوراً في قرية بعيدة منسية.. كنت وعمتي نبكي مفجوعين وقد اختفى جثمان أمي من السيارة التي أقلتنا إلى المستشفى، ولم نصل إليه..

- ولم تعرفي ما جرى لجثمان أمك رحمها الله؟

- عرفت كل شيء فيما بعد، ولكن بعد أن قضيت زمناً مرعباً..

- إن كان ذلك سيؤثر فيك، أجلّي الحديث حتى تأخذي قسطاً من الراحة..

- لا.. أنا بخير، يجب أن تعرف كل شيء وبأسرع ما أستطيع لأن هذا شديد الأهمية..

- نعم يا حبيبتي، أكملي..

- كنت وعمتي نلتمّ على بعضنا، تحوطني بذراعيها وتربت على كتفي وتمسح دموعي محاولة إظهار قوتها، وكنت أعلم أنها تكاد تنهار لولا خوفها عليّ..

* * *

كنت أبكي وعمّتي تهدهدني في حضنها:

- آه ليتني أعلم أين جثمان أمي الآن؟

- اهدئي يا حبيبتي، لابد وأن نعرف..

وفجأة فتح الباب بصرير مزعج ودخلت تلك المرأة الضخمة،

وخاطبتني بلهجة قاسية:

– أمازلت تتحدّثين بوقاحة وقلة أدب؟

رجوتها وأنا أبكي:

– أخبريني أين أمي؟ أين جثمانها؟

– لا أعلم عمّا تتحدثين، سيدخل الآن بعض الأخوة إليكما.. هذه أغطية لتسترا بها نفسيكما، أنتما من غير حجاب، تبدوان كفاجرتين بلا خجل..

قالت عمّتي بغضب:

– لماذا تتحدثين بهذه الألفاظ يا امرأة؟ حرام عليك.. لسنا مجرمتين ولا فاجرتين، عار عليك أن تصفينا بهذه الألفاظ السوقية..

همست: – لا بأس، سأحاسبك على هذا الكلام، تسترا بسرعة أنت والصبيّة..

ثمّ صرخت باحترام:

– تفضل يا مولاي، ادخل..

دخل رجل ملتح في نحو الخمسين من عمره ومعه رجل مسلّح

بدا كأنّه تابعه.. نظرا نحوي كأنّهما يعاينانني كبضاعة، ثمّ قال الملتحي متصنّعاً الغضب:

– تستّري.. لماذا تكشفين رأسك؟

قالت عمّتي معترضة:

– هي لا تكشف رأسها، هوّن عليك، الصغيرة مفجوعة بأمها..

– ماذا يا أخت هدباء، لم تروضي السجينتين جيداً..

– لم أدّخر جهداً في ذلك يا أخي، ولكنهما عنيدتان، وخاصة هذه الكلبة النائحة..

– لا داعي لهذه الألفاظ، حرام عليك..

– كان يجب أن تروّضكما الأخت هدباء بسرعة بالشكل الذي نريد..

همست في أذني ثمّ في أذن عمّتي:

– سأعاقبكما عقاباً شديداً..

عادت عمّتي تلحّ:

– أرجوك يا سيّدي، ماذا حدث لجثمان والدة هذه الصبية؟

– عن أي جثمان تتحدثين، أنا لا أفهم شيئاً..

كنت أبكي بحرقة وعمّتي تحاول تهدئتي، قالت هدباء محتجّة:

– ألا ترى يا سيّدي كم تنوح وتبكي سائلة عن أمها؟

– روّضيها جيداً يا أخت هدباء، قد نعقد عليها لأحد الأخوة..

– لا بأس يا أخ..

– هدّئي من روع الصبيّة، سيأتيها الفرج قريباً إن شاء الله، أطعميهما جيداً، يبدو أن مولانا سينظر في أمرهما بعد أن تهدأ النفوس..

– سأفعل يا أخي، عافاك الله..

* * *

سألها فارس:

– عرفت شيئاً عنهم، ولماذا خطفوكما؟

– نفذوا عملية إرهابية، وهربوا.. أوقفوا سيارة الإسعاف، وسيطروا عليها بعدما قتلوا السائق، ثم عرفت أنهم تخلصوا من عامل الإسعاف الذي يرافق السيارة حين ازدادت الدوريات خلف السيارة بمطاردة كبيرة.. تمكنوا رغم كثرة الدوريات أن

يصلوا إلى بيت زراعي حيث أدخلوا السيارة من باحته، وطمروها لتختفي عن الأعين..

- تنظيم أخطبوطي مموّل بشكل منظم؟

- نعم.. واكتشفنا ذلك متأخرين.. آه يا فارس، كانت أياماً صعبة حين أستعيدها أشعر أنها مضت ككوابيس مرعبة هدّتني..

- قلبي عليك يا حبيبتي، أشعر أنني أشبه بمن صعقته المفاجأة.. لم أتوقع في حياتي أن تكون مثل هذه الأزمة المرعبة قد مرّت عليك..

* * *

تابعت وهي تتنهّد بحرقة:

- عندما خرجا من عندنا، رمقتنا المرأة (هدباء) بعينين نفّاذتين، وقالت:

- لا أدري ما الذي غيّر الأخوة، مولانا يخطط لكما، ولا أعرف ماهي مخططاته، ولكن يجب أن أطيع، سأحضّر لكما طعاماً..

– أرجوك حاولي أن تعرفي أين جثمان أمي؟

– ألم يقل لك الأخ أبو عبيدة أنه سيجلب لك أخباراً عمّا جرى للجثمان؟ لماذا تلحّين؟

خرجت من عندنا وهي ترمقني بنظرات غامضة.. أخذت عمتي المسكينة تحاول تهدئتي وقد شعرت أنّ رعباً جديداً دخل حياتي:

– اهدئي يا ابنتي، يجب أن نصبر حتى نعرف ما يخططون لنا..

– أنا خائفة يا عمتي، ألم تلحظي نظراتهما المرعبة، كانا أشبه بخنزيرين جائعين..

– سيساعدنا الله، أنا أثق بقدرته وعدالته.. لم يخذلني أبداً، لأني صافية النية، لن يجرؤوا على التصرف معك، سأدافع عنك بكل قوة ولو كلفني ذلك حياتي..

– آه يا عمتي.. ترى ماذا يفعل فارس الآن؟ لابد وأنه قلب الدنيا علينا.. ومن أين له أن يعرف أين نحن؟

روت دينا له كيف أحضرت هدباء طعاماً لهما كان فيه اللحم

المشوي والخبز المحمّص والفواكه، طعام فاخر لا يليق بالمكان. هكذا علّقت..

* * *

– في المساء حضر أحد الرجال إلينا، كان قصير القامة يرتدي عباءة قصيرة، وقد امتدت لحيته حتى صدره.. شعرت بالخوف منه، عاينني بوقاحة غريبة، ثم سألني بصوت أجش..

– ما هو عمرك، لابد وأنك لم تتخطي العشرين؟

اعترضت عمّتي:

– ولماذا تسأل هذا السؤال، ما دخلك بعمرها؟

– العمر يهم.. سنعقد عليها لأحد الأخوة..

– ماذا؟ ماذا تعني؟

– سنزوّجها أحد الأخوة، ونخرجها من كفرها..

– هي متزوجة، زوجها موجود، هذا لا يجوز..

– الحل سهل، سنطلقها منه غيابياً..

– وبأي شرع؟ هل أنت مسلم حقيقة؟

بدا عليه الغضب: – ماذا تقولين يا حرمة؟ سأغير من لهجتي معك.. هه.. هل هي قريبتك؟

– هي ابنة أخي، أنا في مقام أمها..

قال بسخرية: – إن أردت سندبر لك زوجاً يضمّك إلى حريمه..

– ما هذا الكلام؟ صحيح أنكم لا تعرفون الأخلاق..

– اخرسي أيتها الحمقاء الفاجرة.. سأقيم عليك الحدّ بتهمة الإساءة للتنظيم، أنت تحقّرين أحد الأخوة..

همست أهدّئها:

– أرجوك يا عمتي، لا تتحاوري معه، لا فائدة..

– يجب أن نوقفه عند حده، هو رجل ضالّ..

– لا ينفع معهم الكلام..

قال بغضب:

– لماذا تتهامسان؟ تتآمران عليّ؟

– أرجوك، عمتي لا تقصد، لا داعي أن تذلّنا أكثر ونحن في هذه الحالة المزرية..

– سأصمت، وسأترككما، لكن عليك أيتها الفتاة أن تستعدي غداً صباحاً لحضور مولانا ومعه من سيصبح زوجك..

خرجوا وأغلقوا الباب بعنف:

– أمعقول يا عمتي؟ ما الذي يحدث؟

– لنثق بالله، فلا بد أن يجد لنا مخرجاً إن شاء تعالى..

– وماذا حدث؟

جاء رجل ضخم إلينا بعد دقائق من ذهاب ذلك المأفون، ونظر إلينا بعمق ثم التفت لي وقال بلطف وهو يعبث بلحيته المشعّثة:

– دفنّا أمك في مقبرة القرية، قد أصطحبك إلى هناك بعد إتمام الإجراءات..

– عن أية إجراءات تتحدث؟

– الإجراءات التي حدثكم عنها الأخ (أبو قتيبة)..

– دفنتموها بكل مراسم الدفن.. لم تعرفوا اسمها..

– الاسم لا يهم يا أمة الله.. هي أيضاً أمة الله.. ودفنت بهذا اللقب..

قلت وأنا أبكي:

– أيمكن أن أزورها غداً، أقصد أن أزور قبرها؟

– أنتم لا تفهمون الشريعة جيداً، حرام زيارة القبور ولذلك نحن نجعلها من الدوارس حتى لا يعرف أحد مكان مدفن أهله..

كنت أبكي بحرقة:

– ولن تسمحوا لي بزيارة مكان دفن أمي.. ولن أعرف ذلك المكان؟ أمعقول؟ يا إلهي أعني..

– يكفي يا امرأة، لماذا هذا البكاء المتفجّع؟ حرام عليك..

– أرجوك يا بني، اصبر عليها مازالت صغيرة..

– هذا أفضل، على كل حال حاولي أن تقنعيها بأن لا ترتكب حماقة حين آتي غداً ومعي مولانا، سأعتبرها ذات حظوة عندي أكثر من زوجاتي الثلاث، تبدو فتية ونضرة وجميلة..

– ولكنها متزوجة، كيف..

– سيدبر ذلك مولانا، عن إذنك..

رمقني بعيني ذئب، وخرج مغلقاً الباب وراءه.. عرفت من عمّتي فحوى الحديث فازددت رعباً..

– وماذا حدث بعد ذلك؟

– لم أستطع النوم تلك الليلة، وشعرت عمتي بذلك فاحتضنتني، وهدهدتني وهي تمسح دموعي الصامتة..

وفي الصباح مع بزوغ الفجر، دخلت تلك المرأة القاسية (هدباء)..

– هيا جهزا نفسيكما، ستتناولان الإفطار وترتديان هذه الثياب، مولانا قادم ومعه قاضي الجماعة والشهود والعريس..

صرخت برعب:

– عمتي، ماذا سنفعل؟

– ثقي بالله يا ابنتي، أنا مطمئنة ولست خائفة منهم..

– ولكنهم قادمون، وسيزوجونني بالإكراه، فكيف أصبر على زيجة باطلة في هذا الوضع المريع..

– اهدئي يا حبيبتي.. يا رب لطفك وعفوك، يا رب ساعدنا..

كان فارس يصغي إليها وهو يشعر بحزن شديد وقد تخيل تلك المواقف المخيفة التي تعرضت لها..

– جاؤوا في نحو السابعة، أربعة رجال، كان أكبرهم سناً له

لحية بيضاء طويلة ويرتدي عمامة على رأسه، وإلى جانبه رجل يرتدي عباءة فاخرة، وقد وضع عصابة على رأسه وصندلاً في قدميه بعكس الآخرين الذين كانوا يرتدون أحذية قماشية..

* * *

هيا يا شيخنا سنكتب العقد، من وليّ هذه الأمة؟ أنت وليّتها يا امرأة؟

– أنا وليّتها، ولكنها متزوجة..

– سنطلقها من زوجها، ثم نزوجها من ابننا، هذا جائز. ما اسم زوجك يا حرمة؟

– آه يا عمتي، لن أفعل ذلك ولو قتلوني.. آه..

أخذت أتأوه، وأنا أشعر بالغثيان..

– ماذا جرى لك يا ابنتي؟ خير؟

– رأسي مصدوع وأشعر برغبة في الإقياء، آه، أحضري لي وعاءً بسرعة..

– ما بك يا ابنتي؟ بماذا تشعرين؟

– بالغثيان، آه.. لا أدري ما الذي جرى لي، آه..

– هذه أول بوادر الوحام، يا مولانا الصبية حامل..

– ماذا تقولين؟ ربما هي تمثّل، ربّما هي تتظاهر بذلك..

– لا يا مولانا، الصبية حامل، هذه بوادر الوحام..

– هل هذا ممكن يا أخت هدباء..

– نعم يا مولانا ممكن، هذه مظاهر الوحام..

– قولي لنا اسم زوجك، سنطلقك منه قبل أن نخرج، ما رأيك يا قاضي قضاة الجماعة؟

همس القاضي بصوت وصل إلى أذني:

– ليس وهي بهذه الحالة يا مولانا..

– إذن ماذا سنفعل؟ لقد وعدت الأخ بها..

– لنؤجل الموضوع ليومين..

* * *

– هل كان ذلك حقيقياً؟

– نعم يا فارس، كانت تلك أعراض الوحام..

– واستمر الحمل و..

- لا تقاطعني أرجوك.. بالطبع أجّل ذلك الحادث عملية الطلاق والزواج لعدة أيام، كنا خلالها نتعرض لزيارات من ذلك الرجل الضخم الذي قالت لي عمتي أنه يريد الزواج بي بعد موافقة أمير الجماعة. كان يقول دائماً:

- أنا أطمئن عليك، بعد أن تستقر حالتك، سنقوم بالإجراءات الشرعية وستكونين المدلّلة عندي، أنت تعجبينني..

كنت أردّد:

- انظري إليه يا عمتي يكاد يفترسني بنظراته..

رجته:

- هه.. اصبر قليلاً عليها، مازالت في وضع غير مريح، هه.. سأليّن لك رأسها، ستصبح مطواعة.. اسمع يا بني حاول أن توصلها لقبر أمها..

- لا بأس.. سترين مني ما يفرحك أيتها العجوز..

همست عمّتي:

- اصبري يادينا، لن يخذلنا الله سبحانه وتعالى، قلبي يحدثني أن الفرج قادم..

- إن شاء الله..

وحكت دينا كيف دبّر لها الرجل الضخم زيارة لما سماه قبر أمها. كانت منطقة ضيقة بمساحة القبر، فوقها حجر كبير..

- هنا دفنّا أمك العجوز..

وحكت دينا كيف انفجرت تبكي:

- أمي، آه، يا إلهي، أمي ترقد هنا..

- اهدئي، لا يجب أن ينتبه لبكائك أحد، ستجلدين، وربما يعاقبونني، هذا لا يجوز. ممنوع علينا أن نبكي على الموتى..

همست عمّتي:

- اهدئي أرجوك يا دينا.

وفجأة انبعثت أصوات ضجة وصخب، كان هناك مجموعة من الناس عندما رآهم الرجل الضخم صرخ برعب:

- عرفوا بخروجك والعجوز معي، سيعاقبونني..

قالت عمّتي:

- ولكن مولانا وعدنا أن نزور القبر، ثم إن الضجة بعيدة، ربما بسبب آخر غير خروجنا معك. ربما يعود السبب لحدث

ما في القرية..

- لا.. أنا أعرف أنهم من جماعتنا، انظري إلى لباسهم، يا إلهي، كل أهل القرية يتبعوننا، وربما هناك أناس آخرون من قرى أخرى مجاورة أيضاً، هيا نعود بسرعة.

- هيا يا دينا، عجّلي، ربما أصابنا العقاب أيضاً..

وصلنا إلى منطقة أشجار متداخلة. قال الرجل الضخم:

- فلنختبئ هنا، لامجال لنا أن نسلك هذا الطريق دون أن يرونا..

* * *

وبدأنا نسمع أصواتاً تعبر قربنا ميّزناها بسهولة:

- غافلني يا مولاي وأخرجهما، أرسلني للبيت الآخر حيث زوجاته لأحضر له سجادة ليفرشها حيث تقيم المرأتين وذلك لراحتهما..

سمعنا صوت الشيخ:

- وعدتهما بالسماح لهما بزيارة المكان بناء على إلحاحه ليكسب قلب الصبية، ولكني فكّرت أن هذا مخالف للشرع،

انتشروا بسرعة أريدهم بأسرع وقت..

قالت المرأة:

– أعتقد يا مولانا أنه سيعود إلى البيت، وإلا نال غضبك، فحق عليه العقاب الشديد، وهو حذر من ذلك.. لا يمكن لأن يصبح الأخ (أبو قتادة) مارقاً على الجماعة..

– معك حق، عودي إلى المنزل مع بعض الأخوة ولننتظر عودته، لابد وأنه أخذ طريقاً آخر..

كان الرجل الضخم يرتجف من الخوف، وعندما اطمأن أن المجموعة ابتعدت، قال:

– سنعود إلى بيت هدباء..

– قد يعاقبونك يا بني، وقد يكون العقاب شديداً..

– سأجلد (40) جلدة.. وربما سيلغى أميرنا فكرة زواجي من هذه الصبية.. خرجت على الأوامر والتعليمات الدقيقة..

– لماذا تعرض نفسك للجلد والعقاب؟ خذنا إلى مكان آخر وانقذ بنفسك، وستتزوج من ابنة أخي..

– ولكنهم سيصلون إلي، أيديهم تصل إلى كل مكان.. هيا

سنعود.. أستطيع احتمال الجلد، ولا أستطيع احتمال الخروج عن الطاعة..

– سترى أنك ستندم على هذا القرار..

* * *

أكملت دينا وهي تتنهّد بحرقة:

– في طريق العودة أطبق علينا عدد من عناصر الجماعة، وبصعوبة بالغة أقنعتهم عمّتي أن الضخم قام بما قام به بناء على ما سمع من أمير الجماعة.. وهكذا أرسلوا الضخم (أبا قتادة) إلى محكمة أقاموها من أجله، ولم نعد نراه، وسمعنا من هدباء أنه في منطقة النفي والسخرة وهي منطقة من يعاقبونهم..

– وماذا جرى لكما بعد ذلك؟

– أهملونا لبعض الوقت، ولم يعد أحد يأتي ليراني ويطلب يدي، حتى مرّ على احتجازنا أربعة أشهر وكان الجنين في بطني قد كبر.. وهذا ما زاد في ابتعادهم عني وعن عمّتي لدرجة أنّ المرأة المسؤولة عنّا قالت لنا يوماً:

- تعبت منكما، أنتما عبء عليّ، أنا مجبرة على العناية بكما..

- أطلقينا إذن، وستنالين الثواب من الله..

- ماذا تقولين أيتها الحمقاء؟ تعتقدان أن الجميع نسيكما، هذا غير صحيح، سمعت أن (أبا قتادة) سيعود من جديد لطلب الزواج منك..

- معقول؟ يا إلهي، هل عاد من منطقة النفي؟

- نعم.. وأثبت لمولانا أنه قوي الإرادة شديد الطاعة..

سمعنا ضجة مجموعة من الناس حيث كانت هناك امرأة تصرخ وتشتم بكلمات نابية.. ثمّ طرق علينا الباب بعنف.. ارتجفت المرأة بخوف، وصرخت:

- أنا قادمة..

فتحت الباب، فاندفعت امرأة إلى الداخل وهي تصرخ:

- أين تلك السافلة؟

- هوني عليك يا أخت؟ ماذا تريدين؟

- أين من سيتزوجها (أبو قتادة)؟

- ماذا تريدين منها؟

أشارت نحوي وهي ترتجف:

- ها هي..

انقضت عليّ كالإعصار وحاولت هدباء وعمتي إبعادها عني ولكنها أوقعتني أرضاً..

- ماذا تفعلين يا مجنونة، إنها حامل، ستسقط جنينها..

- وحامل منه أيضاً..

- كيف؟ ولم تتزوج بعد؟ ماذا تقولين؟

- هي حامل، ولهذا السبب ابتعد عنها زوجك، لا تقلقي..

- إنه يهددني بها، وأصبح مقرباً من (مولانا) بعد عودته من المنفى..

أمسكتها عمّتي بهدوء، وأبعدتها قليلاً عنّي وسمعتها تهمس:

- لماذا لا تهربيها من وجهه؟ يمكنك تدبير الموضوع، يبدو عليك الدهاء.. هيا.. افعلي ذلك، تخلصي منها..

- معك حق، سأفكر بالأمر..

وحكت دينا كيف تمكنت زوجة الضخم من تهريبها وعمتها إلى بيت في قرية أخرى بعد أن خدعت هدباء، وكيف ضيّقت عليها صاحبة البيت ومنعتها من الحركة.. وكانت عمتها صامتة ذاهلة كأنّها تفكّر في أمر شديد الخطورة ثمّ قالت لها فجأة:

– سأقوم بعمل خطير يا دينا وستساعدينني فيه.. البيت منعزل، وصاحبة البيت العجوز تضيّق علينا، ولو تمكنّا من الهرب قد ننجح فيه وننجو، سيساعدنا الله في الخلاص من هذه المحنة..

– وماذا ستفعلين؟

– لا تقلقي.. كوني معي ولا تعلّقي على ما أفعل..

اقتربت العجوز منّا، ونظرت إلينا بارتياب:

– بماذا تتهامسان؟

– لا شيء.. نحن نتحدث، أممنوع علينا الحديث؟

– يجب أن أعرف بماذا تتهامسان؟ الهمس ممنوع أمامي..

– وإلى متى سنبقى هنا؟

– أنا عجوز وأعيش وحيدة، وأنا أتسلّى بوجودكما، فلا تحاولا أن تقوما بأي عمل.. صرخة واحدة مني أحضر كل من في القرية إلى هنا، هه.. سأحضر لكما الطعام الذي أستطيع تقديمه لكما، أنا فقيرة..

– لا بأس.. كما تشائين، نحن طوع أمرك..

* * *

كانت دينا تحكي لفارس وهو مشدوه، كيف عاشت مع العمة تلك الفترة العصيبة من حياتها:

– كانت زوجة ذلك الرجل الضخم (أبي قتادة) قد أعطت للعجوز الأمر أن تبقى يقظة في حراستنا حتى تقرر في أمرنا فيما بعد.

وقد جاء رسول إليها قبل أن تحضر لنا الطعام وسمعنا حديثها معه من وراء الباب:

– مولاتي تطلب منك تحضيرهما للذهاب غداً إلى قرية (البئر الخلفية) لتزويجها هناك ووضع مولاي (أبي قتادة) تحت الأمر الواقع..

- طيب يا شعبان، ومتى سيأخذونها من هنا؟

- سيأتي بعض الأخوة لاصطحابها عند الفجر، حتى لا يثيروا الريبة..

- هل تأكل؟ أنا أجهز لهما الغداء..

- وما هو هذا الغداء؟

- بعض الأعشاب المقلية مع الخبز..

- ستتزوج غداً، هذه الفتاة تحتاج لغذاء، أطعميها بيضاً و(فراخاً محشية)، هذا أفضل حتى لا تبدو بحالة سيئة أمام عريسها..

- آه.. هكذا إذن؟ ولكني أحتاج لبعض المال، لا أملك شيئاً كما تعلم..

- آه قبل أن أنسى، أرسلت لك مولاتي هذا المبلغ، مئتي جنيه..

- عظيم، بارك الله بها، شكراً لك يا شعبان، هل ستتناول الغداء؟

- كان بودي ولكن لا وقت لدي، شكراً يا خالة، انتبهي جيداً.

- لا تقلق يا شعبان، سلم على مولاتي..

همست عمّتي:

- أسمعت يا دينا، لا وقت لدينا، بعد الغداء مباشرة سننطلق، أرأيت يا ابنتي؟ لم ترسلنا إلى هنا إلا لتبعدنا عن زوجها، ثم لتتخلص منك بتزويجك حتى وأنت حامل..

- يا إلهي يا عمتي أنا خائفة..

- الله معنا، لا تخافي..

- بعد أن نأكل، سنبدأ الحركة، اليوم في منتصفه، سنأخذ ماءً معنا حتى ولو حملت هذه الجرة الصغيرة..

- عمتي أنا خائفة..

- لا تقلقي، إن شاء الله كل شيء سيكون على ما يرام..

* * *

الفصل الثالث

دوائر من الرعب

لم تحسب عمتي حساباً إلى أنني في شهري الخامس ولا أستطيع بذل الكثير من الجهد، كان من السهل عليها أن تضرب العجوز على بصلتها السيسائية لتشلّها لبعض الوقت، ونخرج معاً مبتعدين عن القرية..

- هيا يا حبيبتي تشجعي يجب أن نصل للشرطة بأي ثمن..

- أشعر بالتعب يا عمتي، يجب أن أستريح..

- لم نبتعد كثيراً عن الخطر، قد يحدقون بنا، لابد وأن العجوز قد استيقظت.. عجلي يا ابنتي.. هيا..

- المفروض أن لا تكون العجوز متعاونة معهم، وإنما مع زوجة (أبي قتادة).. هذا يعني أن تلك الزوجة لن تبلغ عنا..

- ولكن العريس المنتظر سيكون غاضباً، لأنه لم يظفر بك كزوجة تضم إلى حريمه، لابد وأن الزوجة شرحت له كل شيء..

- نعم يا عمتي، ممكن.. ولكني متعبة..

- تعالي نجلس خلف تلك الأشجار ونرتاح قليلاً..

- الحمد لله، لا تكاد رجلاي تحملاني من التعب.. عمتي، الجنين يرفس، أرجو أن لا يكون متعباً..

تابعت دينا كلامها:

- سمعنا أصواتاً تقترب منّا فاختبأنا، كانت العجوز ومعها بعض الرجال.. وصلتنا أصواتهم:

- لابد وأنهما لم تبتعدا.. اعتقدتا أنني مت.. سأعذبهما عذاباً شديداً..

- هيا يا رجال، فتشوا المنطقة جيّداً.. لابد وأنهما غير بعيدتين..

سألت العجوز: - وكيف قررتم أن هذا هو اتجاه مسيرهما؟

- يا خالة، الطريق المعبد غير بعيد عن هنا.. ستتجهان صوبه بالتأكيد..

سمعنا صوتاً يقترب منهم:

- سيدي، قالوا لنا أنهما اتجهتا نحو الشمال، يجب أن نعجل

لنلحق بهما..

– معقول؟ في الاتجاه المعاكس الآخر، هيا عجلوا لنلحق بهما..

– يا جماعة، عودوا إلى الاتجاه الآخر بسرعة..

– آه.. سألحق بهما وأقبض عليهما بيدي، وسأعذبهما يا سيدي، سأعذبهما..

ابتعدت الأصوات.. وسمعنا صوت حركة بين الأشجار فأصابنا الهلع، ثمّ سمعنا نحنحة:

– هيه.. أنتما خلف الشجرة.. لقد رأيتكما.. لا تخافا.. أنتما في أمان..

كان شيخاً متقدّماً في السنّ:

– أنا شيخ القرية (سعفان الحامد) قلت لتلك المجموعة التي تلاحقكما أنكما اتجهتما شمالاً.. لا تخافا، أنتما بأمان.. بيتي قريب من هنا، سترتاحان لبعض الوقت..

– متأكد أنهم ابتعدوا؟

– نعم.. نعم.. لا خوف منهم إن شاء الله..

– هل أنت مطمئنة يا عمتي؟

– ومـاذا نسـتطيع أن نفعـل يـا ابنتـي؟ لقـد رآنـا فعـلاً عنـدما اختبأنا، ودل الجماعة على مكان بعيد.. سنذهب معه..

كان الشيخ (سعفان) رجلاً في الخمسين من عمره، وهو متزوج ولـه عـدة أولاد، وكانـت زوجتـه مريضـة أقعـدها المـرض فـي الفـراش، اسـتقبلهما فـي البيـت المكـون مـن غـرفتين كبيـرتين يشـغلهما هـو وزوجتـه وأولاده.. وكـان هنـاك ملحـق خلفـي للدواب..

أجلسهما في الغرفة التي ينام فيها القسم الأكبر من الأولاد.. وقـدمت لهمـا البنـت الكبـرى (تغريـد) وهـي مطلقـة فـي نحـو الثلاثين من عمرها.. حليباً ساخناً وبعض الخبز والجبن..

– أهلاً بكما.. كنت أحلم كثيراً أن أعمل في البندر..

– إن جلا الله غيمتنا السوداء، سنصطحبك معنا..

– ماذا؟ وتحتاجان لمن يخدكما؟ أنا محظوظة.. يا سيدتي أنـا مطلقـة، طلقنـي ابـن عمـي (مرجـان) لأننـي لـم أنجـب أولاداً.. وتزوج أخرى من (بنـي جليم) ولدت لـه صـبياً بعد ستة أشـهر

من زواجهما..

– لا تزعجي ضيفتينا يا تغريد..

– أعوذ بالله أن أزعجهما.. قلبي انشرح لهما، تبدوان شديدتي الطيبة..

– اذهبي وحضري لهما مكاناً للنوم تبدوان متعبتين، سأتحادث معهما..

– حاضر يا أبي.. ساعدهما يا أبي أرجوك..

جلس الشيخ في الركن المقابل:

– لماذا كانت تطاردكما تلك المجموعة؟ هي مجموعة كالأخطبوط تنتشر في قرانا هنا، أفرادها قساة شرسون، القتل سهل جداً عندهم..

– خطفونا، كنا في سيارة إسعاف نتجه صوب المشفى المركزي في العاصمة، كانت أم هذه الصبية في حالة مرضيّة صعبة، سيطروا على السيارة واتجهوا بها إلى مكان آخر، ولم نستطع إنقاذ الأم المسكينة، احتجزونا في مكان بعيد ليزوّجوا هذه الصبية المتزوجة والحامل من أحد قادتهم يضيفها إلى

زوجاته الأخريات..

– هي متزوجة قلت، قبل أن تراهم؟

– نعم يا مولانا، والمسكين زوجها يكاد يقتله القلق عليها..

– قاتلهم الله.. نعم وماذا حدث لكما بعد ذلك؟

حكت عمتي القصة لسعفان الذي بدا ساهماً قلقاً.. وحين فرغت من الحكاية نظر إليها بعمق:

– لا أدري كيف سأتصرف معكما.. القضية ليست سهلة، إن اكتشفوا أنني ساعدتكما قد يحرقون البيت، أنا خائف أن يحكي أيّ من الأولاد حول وجودكما معنا.. فينتشر الخبر.. سترتاحان هنا الليلة على أي حال.. قالت عمّتي:

– إن كنا نشكل خطراً عليك يا شيخ سعفان، اتركنا نرحل في الليل صوب القاهرة..

– القاهرة بعيدة يا أختاه، ولا أدري كيف بإمكاني مساعدتكما للوصول إليها، محطة القطار ليست بعيدة.. وهناك قطار يتجه إليها يأتي في الرابعة صباحاً، ربما كان هو الأنسب..

– حسناً.. سنصعد في هذا القطار إن ساعدتنا في ذلك..

– ليس لديكما نقود بالتأكيد؟

– نعم.. مع الأسف، لم يتركوا لنا شيئاً..

– بطاقتانا الشخصيتان، احتفظنا بهما بصعوبة بعيدة عن متناول أيديهم..

– سأحاول تدبير الأمر..

– حالتنا جيدة يا شيخ سعفان، لن ننساك أبداً إن شاء الله..

– إن سارت الأمور على ما يرام، أرجو أن تساعدا ابنتي المسكينة (تغريد) في إيجاد أي عمل تتخلص فيه من الجو المزعج هنا..

– لا تقلق، لقد وعدتها بذلك..

قال فارس وهو يتابع حديث دينا بلهفة:

– وماذا حدث لكما بعد ذلك؟ يا إلهي، يبدو أنك تعذبت كثيراً يا حبيبتي..

شربت قليلاً من الماء وتابعت سرد حكايتها:

– أوصلنا (سعفان) بنفسه إلى المحطة ونحن نرتدي جلبابين أسودين.. وانتظرنا نحو الساعة في المحطة.. وشعرت أن

قلبي يكاد يتوقف، حين لمحت (أبا قتادة) ومعه رجلان آخران يتفرسان في وجوه النسوة.. وكأنما شعر (سعفان) بذلك.. فتكلم بلهجته الصعيدية معنا:

- غطي وجهك يا حرمة..

ثمّ وشوشني بلطف:

- حاولي أن تضعي السلة فوق بطنك يا ابنتي حتى لا يظهر حملك..

وفجأة اقتربت منا امرأة تحمل سلة وترتدي الجلباب.. كانت تغريد ابنة الشيخ:

- سأرافقهما يا أبي..

- لماذا جئت؟ الوضع غير مناسب يا ابنتي..

- قدري أن أكون معهما.. فكرت أنني قد أضيّعهما، ولن أصل إليهما أبداً.. إن شاء الله ستصلان بسلامة وأنا معهما..

همس وهو يرى الرحال الملتحين يقتربون من جديد:

- اسكتي الآن..

كانوا يتحدّثون بأصوات واضحة:

– من الصعب أن تكونا هنا، ربما مازالتا متشردتين في المنطقة..

– ربما اعتقدتا أننا لا نطاردهما..

– سأصل إليهما لو كانتا في الصين.. وحالما سأتزوج تلك الصبية سأطلّق من تسببت في إبعادهما عني تلك الفترة..

– إن شاء الله نصل إليهما يا سيدي.. هه.. ما بال تلك النسوة متدثرات بالجلباب لدرجة أنهن أخفين وجوههن؟

– هناك بعض البرد.. ربما كان هذا هو السبب..

– سأرى وجوههن بطريقتي.. هه..

اقترب منا.. فشعرنا بالرعب:

– أنا أبحث عن ابنة عمي الهاربة.. هل هي بينكن؟

ولكن تغريد اندفعت بجرأة وقد كشفت جزءاً من وجهها..

– عميت عيناك أيها الوقح.. ألا تستحي من ربك.. تتجسس على النسوة وتبحلق بنظرات شيطانية.. أبي، هذا رجل قليل الأدب.. هل تريد أن ألم عليك الناس؟ هيا.. هيا ابتعد.. قبحك الله..

كان مشهداً فريداً وتغريد تلاحقهما بالسباب والشتائم وهما يهرولان مبتعدين وأنا أشكر الله الذي بعث لنا (تغريد) لتنقذنا.. ودعنا الشيخ وقد توقّف القطار في المحطّة:

- وصيتكما ابنتي.. أنا لا أعرف عنكما شيئاً ولكني قرأت في وجهيكما الصدق والأمانة.. انتبهي إليهما يا تغريد في الطريق، قد يكون هناك من يبحث عنهما.. أنت متعلمة يا تغريد، طمئنينا عن أخبارك يا ابنتي..

استغرق القطار وقتاً طويلاً وتوقف في محطات كثيرة، ونحن نحاول الهرب من أعين الفضوليين، وقد ساعدتنا تغريد بشكل كبير..

- (الميش) لذيذ، كلي يا سيدتي، أنت حامل تحتاجين للغذاء من أجل الذي في بطنك.. لا تقلقي أنا أراقب الجو، إن مرت عين غريبة سأنبهكما..

- كم بقي لنصل القاهرة؟

- لا أعرف بالضبط، كانوا يقولون أن الوقت اللازم أكثر من نصف نهار..

لفت نظري دخول رجلين يفتشان بين الناس.. همست تغريد تطمئنني:

- أحدهما المفتش، والآخر ربما رجل أمن..

- وكيف عرفت؟

- هكذا يبدو.. إنهما يقتربان منا..

- استرا وجهيكما قليلاً..

اقترب الرجلان وتوقّف أحدهما إلى جانبي فامتلأ قلبي بالرعب:

- إلى أين تتجهين؟ هل يمكن أن أرى التذكرة؟

ردّت تغريد بعفويّة عنّا: - رايحين مصر يا جناب المفتش، التذاكر هنا.. تفضل..

- أنت من فين؟ هما معاك؟ قرايبك؟

- نعم نسايبي من مصر، زيارة.. لماذا تسأل يا سيدي؟

- لا شيء.. نحن نبحث عن مفقودتين، الصور منشورة في الصحف..

قال الرجل الآخر:

- لا بأس أيها المفتش، سنذهب إلى مقصورة أخرى.. أتتنا التعليمات أن نفتش جيداً في كل مكان، لا بد أن نجدهما بأي حال..

- تبحثان عن من يا سيدي أيمكن أن أعرف قد أساعدكما؟

- عن امرأتين اختفتا بطريقة غريبة بعد أن ماتت المرأة التي كانت بصحبتهما.. أتتنا الأخبار أنهما في الجنوب، احتجزهما إرهابيون مطلوبون للعدالة؟

- وإن لقيتهما، ماذا ستفعل لهما؟ أتستطيع حمايتهما؟ الإرهابيون ليسوا ضعافاً؟

- هه.. أتعرفين عنهما شيئاً؟ هناك جائزة مالية لمن يدلي بمعلومات..

- ربنا يساعدكم.. ليتني أعرف عنهما شيئاً..

* * *

أكملت دينا:

- شعرنا بالطمأنينة قليلاً، لابد وأنك يا فارس قد وضعت كل إمكاناتك من أجل البحث عنا، نشرت عنا في الصحف

والإعلام المرئي والمسموع..

- نشرت الصور الثلاث لك ولماما ولعمتك بعد أيام من اختفائكن.. ثم أبلغني الأمن أن أمك توفاها الله، ودفنت في مكان تمكنوا من الوصول إليه، وقد صممت نقل جثمانها إلى مقبرة عائلة والدك.. ودفناها هناك بعدما تأكدنا من شخصيتها.. وماذا جرى لكما بعد ذلك؟ لماذا لم تتحدثا مع رجل الأمن؟

- خافت عمتي وأنا معها من أن يرانا بعض من يبحث عنا من جماعة (أبي قتادة) وربما كنا محقتين في ذلك لم تكن العملية سهلة لدينا بعد تلك المعاناة المرعبة..

- نعم.. وماذا حدث؟ وصلتما القاهرة؟ وكيف؟

- آه.. لولا تغريد لربما قضي علينا، كانت امرأة ذكية سريعة البديهة بشكل لم نتوقعه أبداً، آه كانت ساعات شديدة الحساسية لدينا..

* * *

- تغريد هناك عدة رجال ملتحون ينقبون في العيون..

- ضعي يا سيدتي دينا السلة التي فيها الطعام في حضنك حتى لا يكتشفوا حملك..

- نعم.. نعم.. سأتظاهر بأنني آكل من الطعام..

- كم هم شديدو الوقاحة..

لفت نظرنا كهل كان يبدو غاضباً منهم.. ثمّ انفجر وقد اقتربوا من امرأته وابنته:

- ما بكم تبحلقون بالنساء؟ ألا تستحون من لحاكم؟ تبدون رجال دين وتبحلقون؟

- لا تصرخ، لا داعي لذلك، نحن نبحث عن أخوات لنا؟

- إذن اخرجوا من هذه المقصورة، ما تبحثون عنه ليس هنا..

وانضمّ آخرون إليه:

- معك حق يا شيخنا، عشنا وشفنا من يدعون الإيمان لا يستحون من العيب..

كان قلبي يملؤه الخوف أن يصل أولئك الناس إلينا، خاصة وأن حادثاً آخر جرى في القطار أرعبني.. همست تغريد:

- أرى بعض رجال الشرطة يدخلون المقصورة يا سيدتي..

- لابأس يا تغريد.. بعضهم يدقق في وجوه الرجال.. قد لا ينتبهون إلينا..

توقفوا أمام رجل كان يجلس شارداً.. كان في بداية العقد الخامس:

- هه.. أرني بطاقة هويتك..

وقف بخوف: - تفضل يا بيه.. لماذا تنظر إلي هكذا، لم أفعل شيئاً..

- انظر يا سيدي، الصورتان متشابهتان..

- أرني.. نعم.. نعم.. فعلاً، الصورتان متشابهتان..

قال الرجل بخوف:

- ولكنها صورة قديمة وبالأبيض والأسود..

- لماذا لم تغيّرها؟ هناك بطاقات حديثة بصور ملونة..

- أنا من مكان بعيد.. أقصد القاهرة للبحث عن العمل، الأرض لا تغلّ لنا ما يكفي لنعيش أنا وأخوتي وأولادنا الصغار..

- لن نستمع لهذه التخريفات التي تتحدث لها، هل أعتقله يا

سيدي؟

- نعم.. نعم.. مادامت صورته تشبه صورة الشخص الذي نبحث عنه..

تدخّل الشاب الجالس إلى جانبه:

- عفواً، ما اسم الشخص الذي تبحثون عنه؟ الصورة لا تكفي..

- وما دخلك أنت؟ اجلس في مكانك، لدينا الصورة فقط.. ليس لدينا الاسم..

- أرني الصورة من فضلك..

- الزم حدودك، واجلس قبل أن أحبسك..

- أنا أعرف هذا الرجل، هو رجل مسكين، لا يمكن أن يكون مطلوباً للعدالة إن كنتم تبحثون عن مطلوبين للعدالة..

- وحضرتك، ماذا تعمل؟ هه؟

- أنا موظف حكومي.. قلت لك أنا أعرف الرجل.. هو من قرية مجاورة لقريتنا..

- الزم حدودك ولا تتدخل.. تعال أنت، لابد وأنك الشخص

الذي نبحث عنه..

بدا الرجل منهاراً وهو يبكي: – يا بيه.. أنا رجل مسكين لم أدخل يوماً مخفراً..

– بلاش عياط.. حطّ الحديد بإيديه..

أصرّ الشاب:

– من فضلك، اترك هذا الرجل..

– أنت شديد الوقاحة.. اجلس في مكانك قبل أن أضع القيد في يديك أيضاً..

– لا.. هذا كثير، أنتم لستم من الشرطة، رجال الشرطة لا يتصرفون هكذا، أرني بطاقتك أيها الضابط..

– ومن أنت حتى تطلب مني البطاقة؟

– قلت لك أرني البطاقة..

انبعثت أصوات صخب وحركة.. ولم نعد نسمع سوى الأصوات المتداخلة.. وفجأة انتفض الضابط المزعوم:

– ارفع يديك.. المسدس مصوّب نحوك، لا تتحرك.. خذوا الرجل وابتعدوا..

سمعنا صوت صفارة جهاز لاسلكي.. كان الشاب يتكلّم:

– آلو.. أنا عبد المؤمن، رجال انتحلوا صفة الشرطة وهم يرتدون لباسهم، قبضوا على شخص وخطفوه.. أعرف الشخص المخطوف..

تباعدت الأصوات وقد اختلطت الضجة بطلقات نار في المقصورات الأخرى.. قالت تغريد:

– رجال الشرطة يتعرضون لهجوم من رجال يرتدون لباساً عادياً..

– ليسوا رجال شرطة يا تغريد، إنهم يرتدون لباس الشرطة.. ربما كانوا مجرمين يتنكّرون بهذا الزي..

– الحمد لله كأنني رأيت هذا الضابط يا عمتي، كان من مرافقي أبي قتادة..

– متأكدة؟ يا إلهي.. من هذا المسكين الذي خطفوه من أمامنا؟

– قال الرجل الذي تصدّى لهم أن ذلك المسكين من قرية يعرفها ولا يمكن أن يكون مجرماً، هه.. عمتي، ها قد عاد..

ذلك الرجل قد عاد..

همست تغريد:

- سأعرف السر، وأعود لكما..

* * *

اختلطت تغريد بالناس، واقتربت من الرجل صاحب الصورة:

- الحمد لله على سلامتك يا أخ.. مين كانوا دول، أنت من كفر طرة؟

- لا.. أنا من كفر الناعس..

- أولاد الأبالسة، لماذا حاولوا خطفك؟

- فسّر لي ضابط الأمن الذي تصدّى لهم السبب.. ارتكبوا جريمة في قريتنا وكنت أحد شهودها، وقد أشرت للقاتل حين قبض عليه رجال الأمن..

- بارك الله بيك..

دخل الشاب الذي تصدّى للشرطة المزعومة واقترب من الرجل:

- أنت بخير يا فؤاد.. لا تقلق، نحن مهتمون بحمايتك حتى

تصل بيت أقربائك..

قالت تغريد:

– بارك الله بك، أنقذته من بين أيدي هؤلاء المجرمين..

– أنت من الصعيد؟ هه..

– نعم.. وأولئك الناس يروّعون أهالي القرى.. أرجوكم.. أنقذونا منهم..

– إن شاء الله سنتصدى لهم قريباً..

وحكت لنا تغريد عن حديثها مع الرجل.. وحين عادت أبلغتنا أن لا نخف:

– الأمن يتواجد في المحطّات بشكل مكثّف..

– قد يطلبون منا إظهار شخصياتنا؟

– لا تقلقي يا سيدتي، كل شيء سيكون على ما يرام..

كان الجنين يرفس في بطني.. همست لعمّتي:

– إنه يرفس.. ضعي يدك على بطني يا عمتي..

– نعم .. نعم.. أنا أشعر أنك ستلدين صبياً جميلاً..

ولكن تغريد تدخلت:

– لا تؤاخذيني يا سيدتي، في داخل السيدة دينا بنت وليس ولداً، أعرف ذلك بالخبرة.

* * *

الفصل الرابع

إيقاعات الحياة

كان رأي عمتي أن نختفي في مكان لا يستطيع أحد الوصول إلينا، وقد وضعت أمامي خيارين:

– إما أن نذهب إلى الإسكندرية ونعيش في بيت منزو لأم وابنتها حتى تلدي وينسانا من يطاردنا.. وإما أن نسافر إلى بلد آخر بعد أن نتصل بأحد أقربائنا ليساعدنا في السفر إلى الخارج بكل سرية..

– إلى هذه الدرجة أنت خائفة منهم؟ وماذا عن فارس؟ وهذا الجنين الذي ينبض في بطني، ليس له دخل بكل ما يجري لنا..

– يا ابنتي، أنا خائفة عليك، هؤلاء مجرمون، لا يتورعون عن القيام بأي شيء، ويبررون قسوتهم بأحاديث وتفسيرات سطحية لبعض فقهائهم.. يجب أن نختفي لبعض الوقت بأي ثمن.. ما رأيك يا دينا؟ أي الطريقين تختارين؟

- والله لا أدري يا عمتي، كدنا نصل المحطة الأخيرة.. ولا أستطيع التفكير جيداً..

- لابأس.. سأذهب لإحدى صديقاتي، ليست بعيدة عن هنا..

- هه.. تعرفين أين سنذهب يا سيدتي؟

- إن شاء الله يا تغريد..

* * *

وحكت دينا أنّه حالما وصلن المحطة، هبطت تغريد أولاً وهي تشير لهما أن يلحقا بها، وهي تترغل بكلامها الصعيدي لإخفاء شخصياتهن ببراعة..

- آني حاطلب تاكسي.. يا الله..

- ليس لدينا المال يا دينا، ماذا سنفعل؟

- معايا شوية يا ستي.. لا داعي للخوف..

- يا رب الطف.. خذي هذه السلة عني يا تغريد..

- طيب.. هاتي..

- هه.. هناك الكثير من السيارات الفارغة المتوقفة..

- أتذكرين العنوان جيداً؟

- بالطبع.. ليس المكان الذي نقصده بعيداً عن هنا..

اقتربت منّا إحدى السيارات العابرة.. قلت لعمّتي:

- هه.. هيا نصعد..

أبعدتني تغريد: - ليس دوره يا سيدتي، أتى من الطريق..

- لا بأس، قد نساومه على السعر..

- شكله لا يعجبني..

قال السائق يشجّعنا على الركوب:

- هيا، إلى أين ترغبن بالذهاب؟ لن أساومكن كثيراً..

- ماذا يا سيدتي، هل نصرفه ونذهب إلى الصف المتحرك هناك بالدور؟

- سأحاول مساومته..

اقتربت منه عمّتي:

- سنذهب إلى الزمالك.. كم تريد؟

- أريد عشرين جنيهاً..

- ثلاثة جنيهات فقط..

- عشرة لا بأس..

– لن أدفع لك أكثر من ثلاثة.. وثلاثة جنيهات مبلغ كبير..

– لا بأس.. سأوصلكن..

همست تغريد:

– سيدتي، أنا غير مرتاحة.. شكله لا يعجبني.. هو ينظر إلينا بوقاحة..

وبعد قليل، شعرت العمة أن الطريق الذي يسلكه السائق غير دقيق:

– لماذا سلكت هذا الطريق؟

– ربما كان أطول، ولكنه شبه خال..

همست تغريد من جديد:

– قلت لك يا سيدتي لست مطمئنة له..

– لا تقلقي، سأتصرف..

كان السائق مصراً على الدخول في أزقة وطرق شبه خالية.. بدأ الخوف يسيطر على العمّة والسيارة تزداد في التوغل في طرقات شبه مهجورة.. ثم توقفت فجأة أمام باب متداع.. ونزل منها السائق وهو يتمتم:

- لحظة، سأعود سريعاً..

همهمت عمتي بخوف: - يا إلهي، ماذا سنفعل الآن؟

ثمّ فتحت باب السيارّة وأخذت مكان السائق:

- ماذا تفعلين يا عمتي؟

- الوغد ترك مفاتيح السيارة تعمل، سأقلع بها بعيداً..

وأقلعت عمتي بالسيارة مبتعدة عن البوابة، وقد خرج الرجل يركض وراءنا وخلفه بضعة رجال، تأكد لنا أنهم من مطاردينا.. ولم نكن قد ابتعدنا كثيراً حتى أوقفت عمتي السيارة في زاوية، وهبطنا منها نبحث عن سيارة أجرة في مكان كان قريباً من سوق ضخم..

سألها فارس: - ولم يستطيعوا اللحاق بكن؟

- لا.. استأجرنا سيارة تقلنا إلى صديقة عمتي في الزمالك ووصلنا سريعاً.. وحين فتحت لنا الباب استقبلت عمّتي بالأحضان:

- وأخيراً أراك يا عزيزتي.. خير لماذا ترتدين هذه الثياب؟

- سأحكي لك كل شيء يا سميحة، وأعرفك بابنة أخي دينا

وبتغريد التي أصبحت جزءاً من أسرتنا..

* * *

تأوهت سميحة صديقة عمّتي وقد سمعت القصّة بالتفصيل:

- كل هذا تعرضت لـه أنت والصبية؟ لماذا لا تذهبين إلـى بيتـك؟ لا أحـد مـن أولئـك النـاس يعرفـه.. ستكونين بمـأمن هناك..

- فكرت في ذلك..

وأردفت بقلق: - يا إلهي، كيف نسيت ذلك؟

- ماذا يا عزيزتي؟

- السائق الذي أخذنا من المحطة وكان ينتمي إليهم، يعرف أننا نتوجه للزمالك..

قالت تغريد: - نعم يا سيدتي، كنت أفكر بذلك..

ردّدت سميحة:- إذن لا تضيعي الوقت، يمكنك الاتجاه صوب منزلك في الدقي.. لا أحد منهم يعلم عنه شيئاً..

- وعلينا الاختفاء هناك.. معك حق..

- سأجهز لكن الطعام وإذا أردتن الاستحمام فكل شيء

جاهز..

– ليس أمامنا وقت طويل، قد أحتاجك كثيراً في الأيام المقبلة..

– لا تقلقي يا عزيزتي، أنا معك دائماً..

وأرسلت صديقة عمتي سيارتها الخاصة لإيصالنا لبيت عمتي في الدقي، وحين وصلنا فوجئت بنا الخادمة وأخذت تبكي وهي تشمّ عمتي وتضمها فرحة بقدومها:

– كاد اليأس يقتلني يا سيدتي.. الحمد لله، أنت هنا أخيراً وسيدتي دينا.

– لا بأس يا سعاد، نحن بخير.. حدثيني، هل سأل أحد عنّا؟

– لا يا سيدتي، ولكننا قرأنا في الصحف أن إعلاناً نشر عنكما أنت وسيدتي دينا.. تكرر كثيراً، ووعد بجائزة لمن يعرف عنكما شيئاً..

– أتعرفين فارس زوج دينا؟

– بالطبع يا سيدتي، ولكني لم أره منذ ذلك الحين.. منذ نحو ستة أشهر..

– لابأس.. هذه هي أخبارك؟

– سمعت أنه عاد إلى الشام وترك وظيفته هنا بعدما يئس من عودتكما وقد اعتقد أنكما قتلتما على الأغلب..

– لابأس يا سعاد وضبي البيت.. سأعطيك التعليمات اللازمة..

كانت دينا تقص على فارس تلك الحوادث التي مرت بها وهي دامعة العينين:

– كنت في بيت عمتك إذن؟

– كانت صحة أمي المتدهورة تمنعني من الذهاب إلى أي مكان إلا بصعوبة وقد أراحني أن عمتي تقيم معي إقامة شبه دائمة.. ربما لهذا السبب لم نفكر في زيارتها في بيتها.. على كل حال قالت لنا سعاد أنك ربما عدت للشام بعدما يئست من العثور علينا..

– لم أعد إلى الشام إلا بعد أن سمعت من الشرطة أنكما غير موجودتين في مصر وأنكما تقيمان في الخارج.. وتوقعت أن تأتيا إلى الشام، وظللت أنتظر كل تلك السنوات عودتك يا

حبيبتي..

– لا بأس، لم أفتأ كل تلك السنوات عن ملاحقة أخبارك..

– كل تلك المدة وأنت في بيت عمتك؟ وكيف تزوجت؟

– ولدت في بيت عمتي، كانت بنتاً جميلة أعطتني كل الأمل والحياة.. حتى أصاب عمتي ذلك المرض الخبيث وقد اكتشفناه بعد شهرين من ولادتي وانشغلت كثيراً بها وقد بدأ يستشري في جسمها..

– وماذا حدث لابنتك؟

– ما بك يا فارس، ألم تر ابنتي؟ ألم تشعر نحوها بشيء.. حرام عليك، ريما ابنتك، وكان يجب أن تعرف ذلك.. تسألني عن زواجي وعن حياة أخرى عشتها بعيداً عنك، ولم أعرف في حياتي سواك، قد تكون الظروف أبعدتنا، وكانت ظروفاً قاسية.. ولكن..

كان مدهوشاً وهو يستمع إليها، قاطعها بانفعال:

– ريما هي ابنتي.. معقول؟ ريما، ريما..

– ألم تشعر بعاطفة الأبوة نحوها، معقول؟! لم أقل لها بعد..

ولكني كنت أريدك أن تخبرها مباشرة..

صرخت تناديها:

- ريما.. ريما..

أقبلت الصبيّة ملهوفة:

- خير، ماذا هناك يا أمي؟

كان فارس مذهولاً وهو يتلقّفها بين يديه:

- ريما حبيبتي.. غير معقول.. تعالي إلي يا ابنتي..

انفجر يبكي:

- أمعقول بعد هذه السنوات أن أكتشف أن لي ابنة؟! ومن أعز الناس على قلبي.. من دينا..

ضمّها إليه بحب وهو يرتجف من الانفعال.. شعرت ريما أنّ ما يحدث أكبر من أن تحتمله، فدار رأسها وهي تهمهم:

- أبي؟! أنت أبي؟! يا إلهي..

- انتبه يا فارس.. ريما دائخة تكاد تغيب عن الوعي من المفاجأة ..

تلقّفها فارس بحنوّ بالغ وهو يجلسها في حضنه.. ثمّ رشّ

وجهها بالماء فاستفاقت:

- يا إلهي، أبي.. أبي.. أخيراً عدت.. لماذا لم تحدثيني عنه يا أمّي؟ لماذا أرسلتني إليه دون أن تخبريني عنه؟ دون أن تخبريني أنّه أبي.. أبي الذي كنت أحلم بلقياه وأراه في أحلامي..

- ألم تميزي اسمه.. كان يجب أن تعرفي..

- خمنت أنه تشابه أسماء.. لا أكاد أصدق، لم تشعريني أن والدي موجود..

- كنت قد فقدت الأمل بحضوره إلينا..

قال فارس يعاتب دينا:

- لماذا لم تتصلي بي، لم تبعثي من يبحث عني، اسمي معروف ومن السهل العثور علي في الشام..

- لم أكن على ما يرام.. فبعد وفاة عمتي، خرجت لأول مرة من البيت أمشي على غير هدى وكان مكوثي في الداخل قد زاد في تلك الفترة.. وقد رأيت في الصحف القبض على مجموعة من الأصوليين ومن بينهم (أبو قتادة) الذي ما فتئ

يلاحقنا.. وقد كانت تغريد تأتينا بكل الأخبار عن أولئك الناس خوفاً علينا..

* * *

قطع عليهم حديثهم دخول تغريد وهي تردّد كلماتها المعهودة لدى دينا:

– هه.. لم تعد الأسعار تطاق يا سيدتي.. معقول؟ آسفة لديك ضيوف؟

– ادخلي يا تغريد أنت من أهل البيت، سأعرفك بفارس..

بحلقت مدهوشة وهي تردّد:

– فارس؟ عفواً سيدي فارس.. معقول؟! وكيف عثرت عليه يا سيّدتي؟

قال فارس متأثراً:

– لم أتوقع في حياتي أن تحصل لي هذه المفاجآت دفعة واحدة..

قالت تغريد تخاطب ريما مداعبة بحبّ ودموعها تسيل من عينيها:

– تجلسين في حضنه كطفلة صغيرة.. عاد إليك والدك أخيراً يا ريما.. يا طفلتي الغالية..

قال فارس متنهّداً وهو يهدهد ريما في حضنه:

– آه من هذا الزمن، فصل بيننا طويلاً، ليتنا لم نضيّعه هكذا..

– آه يا سيدي.. وكتاب الله، لم أر في حياتي امرأة طاهرة تحمل مثل مشاعر سيدتي دينا.. آه كم تعذبت، كم عانت من المرض والوحدة.. حتى انتقلنا إلى هنا..

– آه يا تغريد.. سأنسى كل شيء مادام فارس قد عاد إلى حياتي..

همست تغريد: – عسى أن لا يكون الأوان قد فات..

– لا تقولي ذلك يا تغريد، مادام في الزمن بقية..

عاد فارس يسألها:

– هناك سنوات طويلة لم تفسري لي كيف عشتها بعد؟ أرجوك أريد أن أعرف..

– ما جرى حتى موت عمتي كان واقعياً طبيعياً، ولكن ما

جرى بعد ذلك كان قاسياً لا يصدق..

– كيف؟ أرجوك يادينا اشرحي لي..

قالت ريما:

– لا داعي يا أبي يكفي اليوم، أنفقت أمي أكثر من ساعتين وهي تحكي لك منفعلة عما جرى في المرحلة الأولى من حياتها..

– وتعرفين مكان قبر أمك يا دينا؟

– نعم، قيل لنا أنّك من دفنتها في مدافن العائلة بعد ذلك.. دلّتنا الحكومة على مكان الدفن..

ردّدت ريما محاولة أن تغيّر وجهة الحديث:

– هه.. أنا جائعة، ماذا ستطبخين لنا يا خالة تغريد؟

– ما ترغبينه يا حبيبتي..

همست دينا:

– ستأتي سعاد من قريتها غداً، ستساعدك..

– لا بأس.. مستعدة أن أقوم بأي عمل مهما كان في هذه المناسبة التي لم أكن أتصور أنها ستكون اليوم.. أنا سعيدة

جداً يا حبيبتي ريما، عاد إليك والدك أخيراً..

– أتشعرين بشيء يا دينا؟ أنت لست على ما يرام؟

– أمي مريضة يا أبي، تحتاج لرعاية طبية..

– عاد والدك، سيرعاني جيداً لست خائفة، سترعاني يا فارس؟

همست: – خائفة أن تكون قد تزوجت..

– ماذا؟ معقول؟

قالت ريما وقد وصلها همس أمّها:

– نعم، هي خائفة من ذلك، وإن كان استقبالك الحميمي لها لا يظهر ذلك..

– أتعتقدين أنني متزوج بغيرك يا دينا؟

– كنت أقلب الأمر أحياناً وريما، وتوقعت ذلك.. ولكن اندفاعك لي بكل تلك المحبة والمشاعر الفياضة، أعاد لي الطمأنينة..

– لم أنسك يوماً، وقد مرت عدة سنوات وأنا أمر على البيت الذي كنت تسكنين فيه في الدقّي، فأجده مهجوراً..

– سنتحادث عن ذلك بعد الغداء..

همهمت ريما بمحبّة:

– تريدان أن تتحادثا على انفراد؟ سأذهب إلى غرفتي..

– لا يا حبيبتي، ستجلسين قربي، وليس من أسرار نخبئها عنك..

* * *

بدا الوضع غريباً أشبه بميلودراما غير مألوفة، وقد ازدادت الأسئلة في صدر فارس، ولم يرد أن يرهق دينا المتعبة بأسئلته بعد..

الفصل الخامس

مجمع الأفكار وكائنات (ديمو)

وتجلس يا فارس شارداً مستغرباً كل هذه الحوادث التي وقعت لك وقد عادت لك زوجتك بعد هذه السنوات، ومعها ابنة لم تكن تتخيل وجودها في مدينة مزدحمة صاخبة كالقاهرة..

ترتشف من فنجان القهوة التي أعدّتها لك تغريد، وربما إلى جانبك، وقد دخلت دينا إلى غرفة النوم كأنها تبحث عن شيء ما ستحضره لك..

– أرجوك يا أبي، لا تتركنا، أمي بحاجة ماسة إليك، لا تستطيع أن تتحمل فراقاً جديداً، عانت كثيراً لدرجة لا يتصورها أحد..

– أتعرفين شيئاً تخفيه أمك عني؟

– ربما تخفي عنك بعض التفاصيل، ولكنها لا يمكن أن تخفي عنك حدثاً مؤثراً..

– فترة زمنية طويلة مرت علينا ونحن بعيدان عن بعضنا، من

المستحيل أن نفترق بعد الآن، سأصطحبكما معي إلى الشام، وتغريد وسعاد أيضاً..

– ولكن يجب أن تتحادث في ذلك مع أمي فهي التي تقرر، وأرجوك يا أبي أن تسايرها في قرارها إن رغبت بالبقاء هنا أو بالرحيل..

– بالتأكيد يا حبيبتي، مستحيل أن لا أساير رغبتها.. هي كل شيء في حياتي الآن..

أتت دينا ومعها تغريد تساعدها في سيرها، وقد بدت ضعيفة منهكة:

– بارك الله بك يا تغريد، لولاك لكان عذابي مضاعفاً..

– لا تقولي ذلك يا سيدتي، أنتم أهلي وعشيرتي.. أنا جزء منكم، ولا أستطيع الحياة بعيداً عنكم..

سألتهما:

– عن ماذا كنتما تتحدثان؟

– عنك يا حبيبتي..

ثمّ همس: – لم تقولي لي بعد سبب هذا الضعف..

– سأحدثك بكل شيء.. هه، انسجمت وريما؟

– لا أكاد أصدق نفسي، لي ابنة منك، بالتأكيد سأنسجم معها، هي جزء من عالمنا يا حبيبتي..

قالت ريما مداعبة:

– مازال هناك الكثير من الأحاديث بينكما، هل نترككما وتغريد؟

– ستذهبين وتغريد لتحضرا لي الصندوق الصغير من بيتنا في الدقي..

قال فارس مستغرباً:

– الصندوق المزخرف، الذي أحضرته لك من الهند؟

– نعم.. الذي أهداه لي حين سافر للهند، كانت أول هدية، ما زلت أحتفظ فيه بأوراقي وذكرياتي..

– حاضر يا أمّي، هيا يا تغريد.. السيارة جاهزة..

– ألن تحتاجي شيئاً أحضره لك قبل ذهابي؟ هل أعد لكما الشاي أو..؟

قال فارس:

– لا تقلقي عليها ما دمت معها..

– عن إذنك يا أبي، سأحاول أن لا أتأخر..

قبّلته ريما، ثمّ انسحبت وتغريد..

* * *

– انشغلتِ كثيراً بعمتك وقد أصابها المرض..

– كان السرطان يأكل جسمها، وانتشر بسرعة رغم الأدوية الكيماوية وجلسات العلاج بالأشعة، لم يمهل المسكينة سوى عدة أشهر.. كان ذلك قاسياً عليّ كثيراً..

كانت تردّد وهي تسعل:

– لماذا أتى إليّ المرض؟ أريد أن أرى ريما تكبر، يا إلهي، لو أمهلتني قليلاً، لا تزالان بحاجة إليّ..

– أرجوك يا عمتي اهدئي، ستتحسن صحتك إن شاء الله، هكذا أكد الأطباء..

– أنا واقعية يا حبيبتي، أعلم أنني سأموت خلال فترة قصيرة، وأعلم أن المرض الخبيث إذا استشرى لا يوقفه دواء ولا علاج ولا إرادة..

- ما كان لهم أن يتركوا الإضبارة أمام عينيك..

- كان يجب أن أعرف مرضي، وقد لمّح لي الطبيب بذلك فأردت أن أتأكد منه.. ماذا يجب أن أفعل قبل موتي وأنا أراك بحاجة لشخص يظل إلى جانبك، وربما مازالت صغيرة..

- في مثل هذه الظروف، مازال الوضع صعباً علينا أن نكشف أمرنا للناس، وأولئك المجرمون يلاحقوننا بكل إصرار ودأب.. لا تقلقي يا عمتي، نحن بخير، وتغريد معنا وكذلك سعاد، إنهما كافيتان للعناية بنا..

وطلبت عمّتي الانفراد بتغريد:

- اسمعي يا تغريد، أنا بحاجة للمحامي، المحامي عبد الفتاح، تعرفينه..

- نعم يا سيدتي أعرفه..

- أريده أن يأتي إليّ بسرعة، وأن يقوم بكل الإجراءات التي سأطلبها منه بالسرعة الكلية، اذهبي إليه ولا تعودي إلا به، متى ستعود سعاد؟

- بعد قليل، تنفذ المهمة التي طلبتها منها..

– هيا يا تغريد بسرعة كما قلت لك، لا تعودي إلا وهو بصحبتك..

– حاضر يا سيدتي..

"كتبت لي عمتي كل ما تملك، ورغم مقاومة أقرباء أبي للعملية، إلا أنها نجحت قبل موتها بتثبيت الملكية، وكل ذلك لم أعرفه إلا بعد وفاتها بأيام حين أبلغني المحامي عبد الفتاح أن علي توقيع بعض الأوراق فاكتشفت ما قامت به عمتي من جهد وما تحملته من ضغوط من أقربائها حتى تثبّت ملكية عقاراتها وأراضيها لي.. ولم أكن سعيدة وسط هذا المال والثراء.. كنت قد اختفيت عنا ولا نعرف عنك شيئاً، حتى أنني لم أحتفظ منك سوى بتذكارات وأوراق بدون عناوين، إلا عنوان بيت أهلك في الشام.."

– ولماذا لم ترسلي لي رسائل إلى هناك؟

– عادت لي كل رسائلي بعبارة العنوان غير صحيح.. يبدو أن أهلك رفضوا استلام الرسائل..

– يا إلهي، كيف نسيت ذلك؟ لقد باعوا البيت، ووزعوا ثمنه

على أخوتي وأخواتي، وبالتأكيد لم يتركوا عنواناً لدى الشاري.. آه، يا إلهي، كيف لم يخطر على بالي مثل هذا الخاطر مع أنني تركت أرقام هواتفي عند بعض أقربائك..

– مع الأسف، عاملني الأقرباء كعدوة لهم، ولم أسمع منهم سوى السباب والشتائم.. كانت أياماً شديدة الصعوبة، فبعد وفاة عمتي، وقد قام المحامي بكل إجراءات الدفن، وسط حضور قليل من الأقرباء، وعدم قدرتي على الظهور أمام الناس بشكل عادي نتيجة ملاحقة (أبي قتادة) وجماعته لنا، بدأت عزلتي، ولكنها كانت عزلة من نوع آخر..

– كيف؟ لم تخرجي أبداً من البيت؟

– إلا في حالة اضطرارية ومتنكرة.. تصوّر إلى هذه الدرجة كنت خائفة منهم، مع أنني فيما بعد اقتنعت أنني كنت شديدة المبالغة في ذلك.. وكان يجب أن ألجأ للأمن لحمايتي رغم أن تغريد أكدت لي أنهم قد يسهون عن حمايتي فتقع الطامة الكبرى ويصل إلينا أبو قتادة..

– يا إلهي، كان عذابك كبيراً يا دينا..

– نعم يا فارس، لولا تلك الأحلام التي بدأت تشغلني.. أنت تعلم أن العزلة والسجن والابتعاد تماماً عن الناس يجعل الإنسان بحاجة للحلم، فيأتي الحلم كمنقذ له من هذه العزلة..

– وبماذا كنت تحلمين؟

– ليست أحلاماً عادية.. فبعد وفاة عمتي بشهرين، وكنت متضايقة، منفعلة، قلقة كثيراً، أشعر بأن حياتي تنحو في اتجاه آخر، ثمّ رأيت ذلك الحلم..

* * *

كنت ساهرة أشرب القهوة وأقرأ وأحاول أن أكتب – هذا في الحلم طبعاً – حين طرق علي الباب بهدوء.. قلت لنفسي: لماذا لم تفتح تغريد الباب؟ ثم من عساه يكون هذا الطارق الليلي؟ ربما كانت سعاد وقد عادت من زيارتها لأهلها؟ أخشى أن تستيقظ الصغيرة.. لذلك نهضت وفتحت الباب.. رأيت امرأة ترتدي لباساً غريباً أشبه بلباس الغوّاصين..

– آسفة يا ابنتي، اسمي (سولا)، أرسلوني إليك، رسولة خير؟

– أرسلوك؟! من؟

– مجلس الحكماء في كوكبنا، أنت بحاجة لمن يقف إلى جانبك.. لا تستغربي، أنا كائنة من كوكب آخر نسميه (ديمو)، هو شبيه بأرضكم، يبعد عنها نحو ثماني سنوات ضوئية*.. ولكننا الآن قد وضعنا محطتنا المركزية على قمركم ليسهل علينا المجيء والحركة..

– ولماذا اخترتموني للزيارة؟ ولماذا أنا بالذات؟

– يا ابنتي، نعلم الكثير عنك، نحن متطورون كثيراً، وجئنا إليكم في زيارة اطلاعية لنستكشف سر الحياة عندكم، ولكننا فوجئنا بالفوضى التي تعمّ كوكبكم..

– عفواً تفضلي بالدخول، أنا آسفة..

دخلت المرأة الغريبة:

– هه.. أنت تمرين بمرحلة حرجة في حياتك، وقد قرأنا أفكارك ونعلم مدى معاناتك.. مجلس الحكماء عندنا أرسل رسالة تخاطرية إلينا أن نطلّ على عالمكم، ونحاول أن نخفف من وطأة عذاب الناس الذين ترهقهم العزلة والوحدة، وكنت

* يقطع الضوء في الثانية 300 ألف كيلو متر وفي السنة نحو عشرة مليون المليون أي واحد وأمامه 13 صفراً.

أنت من بين من تنطبق عليهم هذه المواصفات..

- حتى الآن أشعر كأنني أحلم رغم أنني أراك أمامي.. إلا أن وجودك إلى جانبي يبدو غير مألوف، لا يصدق.. أمعقول أن تكوني من كوكب آخر بعيد؟! هذا يبدو غير منطقي عند كثيرين من الناس..

- أعرف حجم الأسئلة والاستفسارات في داخلك، وأستطيع الإجابة عنها جميعها، وسأرسل لك هذه الإجابات تخاطرياً، حتى تتعودي علينا وتفهمين الحياة عندنا، وتتعرفين إلى طبائعنا..

- لا بأس، كيف سترسلين لي هذه الإجابات؟

- ستصلك سريعاً..

"لم أشعر إلا وأنني أعيش مع تلك الكائنات المتطورة الشبيهة بالبشر.. إنّهم يسكنون كوكباً فريداً كالأرض، عليه بحار ومحيطات وأنهار وتزرع الغيوم سماءه، الناس يعملون، يستكشفون، يجدون سعادة في التعرف على الكون وخفاياه.. جلت في كوكبهم كأنني أعيش هناك ورافقتني (سولا) التي

كانت تشبه عمتي.."

– الحياة عندنا يا ابنتي مرت بمراحل صعبة، كان الكائن عندنا فيها أنانياً متسلطاً يحارب الآخر ليظهر نفسه، ثم بدأ الحكماء يتعارفون على بعضهم في كل أقاليم الكوكب، ونجحوا في تأسيس مجلس منهم يضم الصفوة، وتمكنوا من السيطرة على مقدرات الكوكب وتوحيده ونزع بذور الشر من النفوس.. وقد استغرق ذلك زمناً طويلاً..

* * *

"وحينما استيقظت وجدت نفسي في فراشي، وقربي تغريد تحمل فنجان القهوة مع الحليب.."

– الحمد لله، لأول مرة أراك تنامين بعمق، وقد كنت تزرعين البيت بخطواتك في الليل تغالبين الأرق..

– هه.. هل استيقظت ريما؟

– لا.. ليس بعد..

– ألم يطرق علينا الباب في الليل؟ في نحو الواحدة يا تغريد؟

– ومن الذي يمكن أن يطرق علينا الباب؟ نحن نعيش

منعزلين عن العالم، ولا نستقبل أحداً في الليل أبداً..

– متأكدة؟ كأنني سمعت طرقات على الباب في الليل، وأنا شبه نائمة؟

– لا يا سيدتي، لا أحد طرق علينا الباب.. ثم هل عاد إليك الخوف من أولئك الأنذال؟ لن يمسك أحد بسوء وأنا حيّة.. اطمئني..

فكرت كثيراً بما قالته لي (سولا) في الحلم، وطافت في ذهني الأفكار حول كوكب (ديمو) وحول (سولا).. والمدهش أنني كنت أعرف عنه الكثير كأنني عشت فيه حقيقة، بل إن وجه (سولا) لم يكن يفارقني.. ونمت عندي القدرات الخارقة التخاطريّة لدرجة أنني أصبحت أستدعي تغريد أو سعاد في أي وقت أشاء، بل وأعطيهما الأوامر وهما بعيدتان عني..

– أمر غريب! ألم تكتبي هذا الحلم؟

– كتبت بعضاً من تفاصيله، وقد اعتقدت أنه حلم عابر أتاني بسبب عزلتي ورغبتي في الانفلات إلى هذه العوالم البعيدة، وقد حاصرتني همومي ومتاعبي على هذا الكوكب الذي

أعيش فيه.. وفي الليلة التالية، رأيت حلماً أيضاً..

* * *

سمعت في هذا الحلم أيضاً نفس صوت الطرقات على الباب:

- إنها (سولا)، أتت لزيارتي..

فتحت الباب، ودخلت إليّ بثوبها الغريب ولهجتها الحنونة:

- كيف حالك يا ابنتي؟ أما زلت مشوشة الفكر.. سأصطحبك اليوم في رحلة سريعة تتعرفين فيها علينا، سنصل محطتنا على القمر.. لن يستغرق الأمر سوى دقائق.. لا تقلقي.. ابنتك بخير، ولن يشعر أحد برحيلك، ستعودين سريعاً إلى هنا ولن يلحظ أحد أنك قمت بزيارة وعدت منها..

- إلى القمر؟!

- نعم يا ابنتي، لا تقلقي، هيا، تعالي أضمك إلي..

شعرت دينا أنها تخرج وسولا تضمها إلى صدرها بحنان مخترقة الجدران لترى نفسها في مركبة صغيرة تتحرك بسرعة خارقة خارجة من غلاف الأرض الجوي..

ورأت الأرض تتضاءل مبتعدة وقد أخذ القمر يملأ عليها

الأفق، ثم حطت المركبة بهدوء وسط بناء أشبه بزهرة ضخمة، انفتح في وسطها نفق دخلت منه المركبة..

ورأت أمامها مجموعات من الكائنات تتحرك داخل أنفاق مضيئة مليئة بالأجهزة.. ثم دخلت قاعة دائرية اجتمع فيها بعض النساء والشيوخ وهم يرتدون ألبسة خضراء وقد ارتسمت الابتسامات على وجوههم..

دفعتها سولا برفق وهي تقول:

– هؤلاء بعض مستشارينا، أرادوا التعرف إليك عن كثب..

اقترب منها أحدهم مبتسماً بمودّة:

– قد تستغربين يا ابنتي اختيارنا إياك لإيصال صدى حضارتنا إليكم، ومحاولة التدخل لمساعدتك في الاستقرار النفسي، وأنت تمرين بفترة صعبة من حياتك..

ثمّ اقترب آخر له نفس الشكل أيضاً:

– إشراقة العقل لديك، ومعارفك التي تجولين في دوائرها، ونبلك وطيبتك، دفعنا كل ذلك للاتصال بك.. الأخت سولا شرحت لك عن كوكبنا وزوّدتك بالكثير من المعلومات عنه

عن طريق التخاطر، ولكننا نريد منك الآن، وتحت إشراف سولا أن تقودينا إلى أماكن نريد اختراقها..

سألت مبهورة:

- أنتم بتطوركم العلمي تحتاجون لطاقتي الضعيفة! معقول؟!

- نحتاج لطاقة العقل وهي كبيرة جداً، وليس لطاقة الجسد الضعيفة..

- وكيف أستطيع أن أقودكم إلى تلك الأمكنة؟ أقصد الأمكنة التي تريدون اختراقها..

- عن طريق الثقة بنا، وأننا لانحمل ضغينة، ولا نوايا شريرة تجاه كوكبكم ومن فيه..

- أنا أثق بكم فعلاً، وقد تعرفت، ولو عن بعد، على حضارتكم، فبهرتني، وجعلتني أؤمن أن الحياة العاقلة في الكون لا يمكن أن تكون شريرة كما يصورونها عندنا..

- حسناً.. إذن، الثقة موجودة.. ولذلك سنبدأ بالعمل معاً وبشكل سريع.. ستكون سولا موجهتك ورفيقتك، ورسولنا إليك وإلى عالمكم.. ثقي بها فهي جديرة بكل الثقة والأمانة..

رافقيها يا سولا إلى مجمّع الأفكار لترى الأماكن التي نريد منها مساعدتنا في اختراقها..

– هيا يا ابنتي، إلى مجمّع الأفكار..

"كان مكاناً صغيراً تحيط به قبة بلورية تطل على السماء بنجومها غير المتلألئة التي تبدو كنقاط بيضاء على صفحة سوداء، جلست وسولا خلف الأجهزة وقد بدا الموقف لي أشبه بحلم لم أتصور حدوثه.. كنت أعشق الفضاء والكون ومجراته الواسعة، وتبهرني مشاهده في الأفلام العلمية..

* * *

الفصل السادس
اختبارات لمستقبل قادم

– كأنما أتتك هذه الأحلام لتريحك من تلك الضغوط المرعبة.. إنها أحلام يتمنى الإنسان العاقل أن يعيشها..

– آه.. كان مجمع الأفكار شيئاً غير عادي، مبهراً، خارقاً.. جلست فيه إلى جانب سولا، فشعرت بالصفاء ونقاء السريرة، والقدرة الكبيرة على الاستيعاب.. وبدأت أتابع ما تقوم به سولا من عمليات على جهاز حاسوبي متطور يغيّر الصور والمشاهد وينطق بأسماء الأمكنة ورموزها بلغة عربية سليمة، حيث برمجته لهذه اللغة تلك المخلوقة الرائعة (سولا)..

– سنطل على عالم القطبين عندكم.. ركزي على ذلك، نحن من خلالك سنخترق المكان..

وظهر لدينا كأنما هناك كاميرا حاسوبية متطورة، بدأت تصل القطب الشمالي ثم تخترق الأرض، لترى رؤوساً وصواريخ، ومخزونات أسلحة، ثم رأت أنفاقاً وعوالم سرية لبشر يعيشون

هناك وسط الصمت والغموض..

وفوق الجليد كانت تبرز كتل جليدية أسطوانية وتكعيبية، تخفي تحتها أشياء ليست في الحسبان، ودخلت الكاميرا المتطورة إلى الأقبية المنتشرة تحت الأرض لأعماق كبيرة، كان هناك أناس يتحادثون تحت جليد القطب الشمالي ومحيطه المتجمد الضخم.. سألتها:

– أمعقول أن يعيشوا تحت الجليد، والذي نعرفه أن في الأعماق مياه وأن السطح الواسع هو المتجمد؟

– كل شيء متجمد هناك، وهم يعيشون وسط هذا الجليد.. هه.. يمكنك الآن سماع أحاديثهم..

– من هذا المكان الذي يبعد نحو /400/ ألف كيلو متر، معقول؟ من على القمر، يمكننا سماع أحاديث الناس؟! يبدو الأمر خارقاً..

– تابعي يا دينا ما يجري، ستصلك أحاديثهم..

وصلتني الأحاديث التي كانت غريبة مزعجة:

– انتهى المستودع الجديد؟

– نعم يا سيدي، ونحن على استعداد لجلب رؤوس الصواريخ الجديدة لتخزينها..

– لن يطول الأمر، قد نستخدم هذه الرؤوس قريباً.. هكذا قيل لـــي، خزنوهــا علـــى أصــولها أي جــاهزة للإطــلاق فــوق صواريخها..

– إن رأساً واحداً منها يكفي لتدمير مدينة ضخمة بعدد سكان يزيد على المليون، ومسحها عن الخارطة..

– وسنقوم بذلك في بعض الأمكنة من العالم، لابد من مسح بعض المدن.. الرؤوس الجديدة جربت بشكل محدود، قدرتها التدميرية هائلة..

رأت دينا أناساً بسحنة سوداء يدخلون إلى مكاتب صنّاع القرار، بدؤوا يعطونهم التعليمات التي تظهر سطوة القوى العظمى في العالم على مقدرات الحياة على الكوكب، وجورها وتعسفها..

كانت سولا تنتقل بين الأنفاق بالكاميرا الحاسوبية، وهي قلقة متأزمة:

– هذا الجزء الخفي من كوكبكم، أو أحد الأجزاء الخفية، التي دلتنا عليها التقارير.. آه يا ابنتي، يبدو الوضع صعباً لديكم.. هه.. سننفلت في اتجاه القطب الجنوبي، إنه قارة من اليابسة التي تسمونها (أنتاركتيكا).. انظري إليها الآن، من خلالك سنصل تفاصيلها..

– أشعر أنني متوترة بسبب هذه الاكتشافات..

– خذي هذه الحبة، ضعيها تحت لسانك ستشعرك بالراحة..

ووضعت الحبة تحت لسانها، كان طعمها أشبه بالعسل الصافي، وعادت إليها ثقتها فوراً..

وتوجهت الكاميرا صوب (أنتاركتيكا)، وظهرت المعسكرات في جو ضبابي قارس، كانت مراكز بحوث متنقلة، تخفي الكثير من الأسرار عن الخلية الحيّة، والتجارب التي تجري عليها..

– انظري، بدأنا نخترق الأقبية، ها هو مختبر ضخم، فيه عينات حية..

رأت دينا حيوانات مختلفة (فئران – جرذان – حيوانات صغيرة – حشرات).. يا إلهي، ما هذا؟

– أطفال صغار على مناضد التشريح.. معقول؟! آه.. وهناك أجساد بشرية من مختلف الأعمار تتمدد على المناضد، منظر مرعب يا خالة (سولا)..

– لا تخافي، لن تشعري بشيء، تابعي تجوالك بالكاميرا..

"آه يا فارس، حين استيقظت من الحلم في اليوم الثاني شعرت أنني مرهقة، فالصور والمشاهد المرعبة التي شهدتها لم تكن عادية.. ولحظت على يدي أثر لندبة بدت حديثة، ولم أعرف السر في ذلك الحين.. كانت ريما تملأ علي البيت سعادة وهي تترغل، وقد تابعت صور (أبي قتادة) المعروضة في التلفزيون، وقد حكم عليه بالسجن المؤبد مع بعض رفاقه.

– وكنت تعيشين في بيت عمتك؟

– نعم، في ذلك الحي القديم الذي تشدّك فيه رائحة الحميمية بين الناس والتي حاولت أن أعتزلها رغماً عني بسبب الوضع الخطر الذي كنت أعيشه..

– ولماذا لم تختلطي بالناس بعدما رأيت (أبا قتادة) محكوماً عليه في السجن؟

- كنت قد صممت على أن أخرج وريما إلى الشارع، نذهب إلى الحدائق والأمكنة الجميلة، ونعيش الحياة على طبيعتها، وقد صممت على السفر إلى الشام.. ولكن تلك الأحلام بدأت تأتيني وترهقني..

- هل عادت الأحلام من جديد؟

- اعتقدت في البداية أنها أحلام مؤقتة عابرة، ولكن بعد عشرة أيام من الحلم الثاني جاءتني سولا من جديد..

* * *

- هيا يا ابنتي، سنعود إلى مجمّع الأفكار على القمر..

"وبدأت أغوص في مشاهد النجوم البيضاء على صفحة بيضاء قبل أن تتبهني سولا إلى أننا سنغوص من جديد في مناطق من الأرض عن طريقي.. كانت تلك مرحلة صعبة شعرت خلالها بالرعب مما يجري على الأرض.."

- سندخل بعض المناطق من شمال الكرة الأرضية الآن، ركزي جيداً..

حكت دينا كيف بدأت الكاميرا الحاسوبية المتطورة تدخل في

التفاصيل.. عمارات ضخمة شاهقة، ولجان من الناس تجتمع حول مناضد بوجوه مقطبة.. وحين ضغطت سولا على أحد الأزرار بدأت الأصوات تصل:

– قراراتنا قطعية.. نحن سندعم تلك الدولة الحديثة بكل إمكاناتنا، ولن نسمح لأحد أن يعتدي عليها أو يعرقل الأمن فيها..

"شعرت عندها أنهم يتكلمون عن تلك الدولة الغاصبة التي اعتدت وشردت وارتكبت المجازر.."

وتابع عندها رئيس الاجتماع قائلاً:

– نحن ننسق مع القوى الأخرى، نحن الأقوى والأغنى، وكل العالم مفتوح أمامنا، لن نشفق على أحد يعادينا أو يظهر معارضة لخططنا..

– كل العالم يجب أن يخدمنا، نحن الشعب المختار، ولن نسمح لأحد أن يعارضنا.. هه.. أنت منسّق سياستنا يا (أزولي)..

– بالطبع يا سيدي، وبدأنا نحدث انهياراً اقتصادياً لدى الدول

لنحكم قبضتنا عليها..

– بدأت فرق الغناء الرخيص والأفلام الماجنة والجمعيات التي تنشر الفساد تأخذ دورها بين شعوب العالم..

– يجب أن تصبح الأجيال الجديدة طوع أمرنا، نحركها كما نشاء..

– ولكن البعض مازال يقاتلنا بالموت، إنه يشكل أخطر التهديدات علينا.. فالذي يضحي بنفسه في سبيل عقائده ومبادئه الإنسانيّة يرهق مسيرتنا..

* * *

"شعرت أننا نغوص في خطط مرعبة لمستقبل قادم لن يكون جيداً على الإنسانية، وربما ستصبح آثاره شديدة الخطورة على حياة البشر.."

– واستمرت تلك الأحلام بنفس التواتر؟

– نعم.. وكانت تكمّل بعضها لدرجة أنني أخذت أنتظرها، وحين لا أراها في نومي أشعر بالحزن والقلق..

– وهل أثرت على حياتك وريما؟

– أثرت كثيراً، لم تكن ريما في سن الفهم لما يحدث لي أثناء نومي، وكنت أستيقظ فأسجل باختصار شديد ما أراه متمنية لو كانت عمتي مازالت حية لأحكي لها أحلامي.. وذات يوم أشعرتني سولا أن علي القيام برحلة طويلة قد تستغرق الليل بطوله.. وحالما نمت وأنا متشوقة لأراها في الحلم، ظهرت لي وهي تبتسم:

– ما بك يا ابنتي؟ تبدين متشوقة لرؤيتي.. لقد طلبتِ مني المجيء..

– آه.. نعم يا خالة سولا، كأنني شعرت أننا سنقوم برحلة طويلة معاً، فأردت أن ألقاك؟

– حسناً، استعدي يا دينا سنقوم برحلة طويلة الآن..

– طويلة، طويلة؟

– نعم يا ابنتي، سنختصر لك الزمن والتاريخ وتتجولين في أعماق مجمع الأفكار حيث المركز المتألق.. هيا يا ابنتي، لا تخافي ولا ترتعشي، سترين شيئاً لا يمكن أن تحلمي حتى برؤيته طوال عمرك..

– حسناً يا خالة..

"أية مشاهد بدأت تتخايل أمامي، مشاهد أشبه بشيء خارق لا يمكن أن يكون مألوفاً لأحد.. رأيت كيف ولد الفكر من المركز المكثّف.. ولاحت أمامي انفجارات بلا صوت، ثم بدأ تشكل المجرات وتكاثفت فيها النجوم، وامتد الكون بجمال باهر خارق حتى للعقل، شعرت أنني أطفو في عالم جميل وأنا أرى السدم والسحب الكونية والكواكب والنجوم والأقمار وذوات الذنب والأشكال الملتوية المفلطحة البارقة اللامعة المتغيّرة في ألوان بهية لا يمكن وصفها.. آه يا إلهي.. كم يبدو الإنسان صغيراً وهو يصارع في حياته من أجل متعة هي كل شيء عنده، ويبتعد عن العقل.. العقل هو مفتاح الفهم والفكر والانعتاق في فضاء لا حدود له..

– تبدو كلماتك كأن كل شيء مازال مغروساً في ذاكرتك..

– آه يا فارس.. عجزت عن كتابة ما رأيته، ولكنه مازال منطبعاً في ذاكرتي.. ما زلت أرى جمال الكون البديع بألوانه التي لا نعرف الكثير منها.. إنها تتجاوز ألوان الطيف الذي

نعرفه، وتصل إلى مشاهد خلاّبة غاية في الروعة.. آه يا إلهي.. كل شيء كان يتفاعل، يتحوّل، يتشكّل، حتى بدأت مشاهد الخليّة الحيّة، التي بدأت تطلّ على عالم الحياة على الكواكب..

- ليس على الأرض فقط؟

- بل في كواكب كثيرة، لم أتمكن من حصرها.. كنت كأني أمشي في نفق شفاف، أرى حولي انفلات الحياة المتشكلة وتنوعها وتوالدها وانقسامها كائنات صغيرة تسبح في المياه، زواحف ضخمة بأرجل وبدون أرجل، طيور من أعجب الأشكال التي لا يمكن حتى تخيلها، حيوانات ثديية، بشر يسرحون ينفلتون مع بدء التاريخ، يتصارعون ويقتل بعضهم بعضاً، ولا أرى الدماء السيّالة إلا مع ظهور البشر، آه يا فارس، كانت الحيوانات القديمة تأكل بعضها لتعيش وتتعايش، بينما كان الإنسان يقتلها للأكل ثم للمتعة ثم للزينة، ثم تكبر الأنانية والطغيان في داخله ليعلن نفسه إلهاً صغيراً ما يلبث الموت أن يجتاحه ليموت وتتفسخ جثته..

– معقول؟ يا إلهي، كأنما تقرئين من سفر ملحمة التكوين في فضاء لا حدود له.. أشعر بك ترتعشين وأنت تستعيدين تلك الصور والأحداث..

– نعم.. كنت أطل على عالم كانت حياتي قبله بلا معنى..

– إلى هذه الدرجة؟

– نعم.. لا تتصور مدى التغير الذي طرأ على حياتي، كان أمراً خارقاً، نسيت خلاله آلامي وأوجاعي، وبدأت أخرج من البيت غير خائفة من أولئك الذين طاردوني يوماً، كانت ريما معي وأحياناً تغريد وسعاد.. كنت أشعر أنني أعيش حالة من الطيران في دوائر غير مألوفة، أرشف منها ينابيع المعرفة والعقل..

– وظلت الأحلام رفيقتك في تلك الفترة يا حبيبتي؟

– نعم يا فارس، وبدأت الأسئلة الكبيرة تخطر على بالي، أسئلة يجب أن أعرف أجوبتها خلال الحلم.. وقد تحاورت في ذلك مع سولا، فقالت لي:

– ليس الأمر سهلاً يا ابنتي، معرفة الغيب بالنسبة لكم أنتم

البشر غير مسموح بها، محظورة، لا نستطيع أن ندخل في دوائرها.. ولكني أقول لك ثقي بنفسك وبأن حياتك ستتغير وتستقر ولن يخيفك المستقبل بعدها..

قلت لها برجاء:

– هي أسئلة كبيرة، سمحت لنفسي أن أسألك عنها وإن كنت مترددة في ذلك، أردت فقط أن أعرف شيئاً عن بعض من فقدتهم في ظروف صعبة عشتها ولقيت الجواب إلى حد ما..

– أنت تسألين عنه؟ هه.. سيعود إليك.. أرى ذلك في الزمن المقبل.. هه.. هل نبدأ جولتنا الجديدة الليلة؟

– كما تشائين، هل سنذهب إلى مجمع الأفكار؟

– لا شك أنك تودّين رؤية الجانب الآخر الذي يمكن أن يكون مضاءً بالأمل في كوكبكم؟

– ماذا تقصدين يا خالة؟

– هناك بعض التغيرات التي قد تطرأ على كوكبكم، فيها الكثير من الكوارث، والحروب والمجاعات، كوارث طبيعية وبيئية.. ورغم ذلك هناك من يقاوم ليعيش ويحقق شيئاً من

وجود الخير الذي تفتقدونه كثيراً..

- لا بأس، يمكنك البدء باصطحابي..

- على بركة الله..

" شعرت أنّني أنتقل بسرعة خارقة إلى قبّة بلورية كأنها في مرصد ضخم، أطل على سماء مليئة بالنجوم، وسولا تجلس إلى جانبي، وأمامنا الكثير من الأجهزة والأزرار، وامرأة في عمر الورد تشبه شخصاً أليفاً لديّ.." قالت لي الامرأة:

- حدقي في القبة البلورية في مركزها الأعلى..

- حسناً.. أنا أحدّق.. يا إلهي ما الذي يجري لي؟

- لا تخافي، قد تشعرين بالدوار، ولكنك ستنتقلين إلى مكان يضج بالحياة.. سأكون معك، رفيقتك الدائمة، لا تخافي..

- ما دمت إلى جانبي، لا أشعر بالخوف..

"وجدت نفسي في منطقة مدمرة نتيجة قصف بأسلحة فتاكة، وغبار أبيض ينطلق حولنا.."

- البسي هذه الكمامة، الغبار هو فوسفور أبيض شديد الضرر..

- حسناً، ماذا يفعل هؤلاء الناس؟

- إنهم يحاولون إنقاذ الضحايا، ألا ترين كيف يعملون؟ حتى الطائرات التي تحمل الموت لا تخيفهم ولا تمنعهم عن أداء الواجب الإنساني، لا تخافي، لن تصابي بشيء، أنا معك أحميك..

سمعت أصوات الناس.. أصوات المصابين والجرحى والمنكوبين..

- عجل يا حامد، أحضر السيارة، هناك الكثير من المصابين..

- طيب.. طيب.. الركام يعرقل حركتنا.. لابأس، هيا يا شباب، ساعدونا، السيارة جاهزة..

كانت هناك امرأة تصرخ:

- اتركوني، وأنقذوا أولادي، أرجوكم..

كانوا ثلاثة أطفال يتشبثون بها، الطفلة ميتة، والأكبر مصاب إصابة بالغة، والأصغر بدا سليماً، ربما يبكي من الرعب..

- تعالوا ساعدونا، سننقل الأم وأطفالها إلى سيارة الإسعاف

بسرعة..

كانت الأم تصرخ:

- اتركوني، أنقذوا أطفالي..

رأت دينا كيف يقوم أولئك الناس رغم القصف والموت بالبحث عن المصابين وإنقاذهم رغم الخطر والدمار، وقد بدا التعب عليهم، وهم يقاومونه ليحيا الآخرون..

شعرت دينا أن المشاهد مؤلمة بشكل كبير، وكأنما أحست (سولا) بذلك فأخرجتها من ذلك المكان..

- هناك بعض الأمل في الناس كما ترين..

- ولكنها مشاهد شديدة البشاعة..

- معك حق، القتلة هم أسياد الكوكب الآن.. ومن يقاومهم أمل المستقبل البشري، حتى لا يصبح الاستعباد عنواناً لعصور مقبلة..

- حدقي في مركز القبة الآن..

"آه.. أنا أنتقل إلى عالم آخر.. يا إلهي، إنها سجون مقيتة، أرى في داخلها مساجين يعانون التعذيب والرعب.."

- أين الأمل في ذلك يا خالة سولا؟

- هل أنقلك إلى هناك؟ ما رأيك؟

- يجب أن أنتقل إلى هناك لأرى ما يحصل على الطبيعة..

- كما تشائين وأنا معك..

كان السجانون مرعبين، شديدي الوحشية، وكان المسجونون يقاومون دون يأس.. وفجأة دخل الجنود بأسلحة فاعلة، ودينا تعيش في المشهد بكل أبعاده، وكأنها ترى وتشعر دون أن يراها أحد..

احتل المقاومون السجن وأطلقوا المساجين، وخرج هؤلاء إلى الحرية.. وقد بدأ الشرّ ينسحب تحت ضربات الخير..

- هي صورة تمثل تفاؤلاً.. مادام الخير يقاوم الشر، هناك أمل..

- كأنني أطل على هذا العالم وأتنشّق عبق الحرية مع هؤلاء المقاومين..

- الأمل هو الذي سينتصر بالخير، ثقي بذلك..

* * *

"لن أنسى في حياتي ما رأيته، طفت كثيراً من العوالم، ورأيت الكثير من المشاهد التي أعطتني بعض الثقة والتفاؤل.. ولكن لكل شيء نهاية.."

- ماذا تعنين؟

- أبلغتني سولا يوماً، وقد شعرت أنني متعبة، وصحتي تتدهور..

- اسمعي يا ابنتي، استفدنا منك كثيراً، كنت خير رسول بشري استخدمنا عقله في بحوثنا وإيغالنا في خفايا كوكبكم..

- كنت أداة لأبحاثكم؟

- ليس بهذا المعنى يا ابنتي، بك رغبة وظمأ للاستكشاف والمعرفة، وقد ساعدتنا هذه الرغبة لنتوغل في أسرار الكوكب ونتعرف على ألغازه وألغاز سكانه.. وكنت من جانبك تغوصين في رحلة الكشف العقلي مستمتعة بما ترين وما تخزنين من أفكار ومعارف.. لم نستغلك أبداً يا دينا، كنا معاً في رحلة مزدوجة، استفدنا نحن منها في بحوثنا، وأغنيت بها معارفك..

- فهمت.. وكأنما ستنتهي هذه الرحلات؟

- أتعبناك كثيراً، وسأشرح لك الأمر فيما بعد، كاد الفجر أن يبزغ..

* * *

استيقظت من حلمي وأنا أشعر بالتعب فعلاً، وقد لحظت تغريد ذلك:

- ما الذي يحصل لك يا سيدتي، أراك تتغيرين وتذوين ويصفر وجهك ويخف وزنك كثيراً في الأيام الأخيرة.. يجب أن تراجعي طبيباً..

- أنا بخير يا تغريد، لا بأس..

- لا.. لست بخير، وحين تعود (ريما) من جامعتها سنصطحبك للطبيب..

- آه.. احضري لي بعض العصير سنناقش الأمر..

سمعنا طرقاً على الباب:

- انظري من في الباب..

ذهبت لتفتح الباب.. وسمعت صوتاً من ورائه:

- أريد رؤية سيدتك، اسمي سولا..

نهضت مذهولة وأنا أتقدّم صوب الباب وصوت تغريد يصلني:

- في الباب امرأة ترغب برؤيتك، تبدو شديدة الطيبة تشبهك قليلاً، ربما هي قريبتك، اسمها سولا..

- سولا؟! معقول؟!

- نعم، هكذا أخبرتني، هل أدخلها؟

كنت أتقدّم نحو الباب ببطء:

- نعم، أرجوك..

- طيب.. هي قريبتك إذن، لماذا لم تتحدثي عنها؟ سأعاتبك بعد أن تنهي زيارتها لك..

دخلت سولا وكانت ترتدي ثوباً عاديّاً:

- دينا ابنتي، كيف حالك؟

- سولا، خالتي معقول؟! لا أصدق أنك هنا، أنت حقيقية؟! تغريد، جهزي لنا القهوة..

- جئت أودعك، لن أستطيع القدوم إليك بعد ذلك..

- ولن أراك في أحلامي؟

همست:

- لم تكن أحلاماً، كانت حقيقية، تنتقلين وترين كل شيء، ونعيدك إلى فراشك دون أن يلحظ أحداً ذلك، وكنا شديدي الدقة..

- لم أكن أحلم؟! يا إلهي، كان يجب أن أتوقع هذا..

- شعرنا في الأيام الأخيرة أن التعب بدأ يظهر عليك، وقد أحضرت لك عقاراً سيعيد لك قوتك بالتدريج شرط أن تشربيه خلال ستة أشهر..

- آه.. إنه سائل في حوجلة زجاجية ضخمة..

- آسفة يا ابنتي، أخذنا الكثير من طاقتك خلال علاقتنا الطويلة بك.. أنت إنسانة رائعة نبيلة ذكية وخيرة، وقد شجعتنا هذه الصفات لنتعرف إليك وندخل في عالمك، وندخلك في عالمنا..

- وكنت أعتقد أنني أحلم..

- ولم تكن أحلاماً، كانت حقيقية..

– القهوة.. تفضلي..

– شكراً لك..

قالت تغريد بفضول غريب وهي تحدّق في الضيفة الاستثنائية:

– أتريدين شيئاً يا سيدتي، أرى أنك ترغبين بأن تكوني وضيفتك على انفراد؟

– نعم يا تغريد، شكراً لك..

لم تبق سولا طويلاً، وإنما ودعتني بحرارة وهي توصيني بأخذ ملعقتين من الدواء كل صباح، ثم غادرت دون أن تمس فنجان القهوة..

– وهل أخذت الدواء؟

– كان طعمه مراً، تابعت تناوله لنحو شهر، ولكن سعاداً كسرت الحوجلة الزجاجية دون أن تنتبه، وخسرت السائل عندها، السائل الذي كان – ربما – سيعيد لي طاقتي وحيويتي، ثم قدمت أنت إلى القاهرة..

– لم أتصور في حياتي أن ألقاك بعد هذا الغياب.. ولكني

سأعتني بك لأعيد إليك حيويتك وطاقتك يا أغلى الناس..

- أنا سعيدة بك يا حبيبي.. جميل أن تجمعنا الحياة مرة أخرى..

كنسمة العبير دخلت ريما:

- ألا تشعران بالجوع؟ هيأت تغريد طعاماً متنوعاً شهياً..

ضمّها فارس بحبّ وهو يتمتم:

- حسناً يا ابنتي، هيا يا دينا، سأساعدك..

كان شيئاً خارقاً أن يجتمعا مرة أخرى في رحلة عمر جديدة..

الفهرس